

# في فضل اللغة العربية

(تعلمًا وتحدثًا والتزاماً)

معالجة قرآنية ونبوية وتراثية

إعداد

دكتور / أحمد عبده عوض

م٢٠٠٠ / هـ١٤٢٠

مركز الكتاب للنشر

# كتاب الطبع وحفظه

الطبعة الأولى  
٢٠٠٠



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة  
٢٩٠٦٢٥٠ - ٢٩٠٨٢٠٣ : تليفون  
فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ٢٧٢٣٣٩٨ : مكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## رِحْمَةُ الْمُعْتَصِمِ

الحمد لله رب العالمين، أنزل قرآنه العظيم بلسان عربى مبين، على أفضل الخلق وسيد الرسل، وأ Finch العرب، ومن آتاه الله جوامع الكلم؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذوى نسبه. وبعد:

فالعربية هي وعاء الكتاب الخالد بها أُنزل وحفظ، وكل معلم ومتعلم في حاجة إليها؛ لأنها أساس كل علم ومناطه؛ فالعربية خير اللغات، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم وفتح التقى في الدين، كما أنها أمت اللغات، وأوضحتها بياناً، وأذلتها لساناً، وأمدتها رواقاً، وأعدتها مذاقاً، ومن ثم فقد اختارها الله تعالى لأشرف رسالة، ولخاتم أنبيائه، وجعلها لغة أهل سماء وسكنان جنته، وأنزل بها كتابه المبين، وهي لغة الإيجاز والبيان والإعراب والبلاغة والفصاحة.

كما أنها مثل المضمون الروحي لشخصيتها العربية، وهي مناط قوميتنا، وأساس تراثنا، وما ده ثقافتنا وحضارتنا، وهي مستودع رسالة السماء الخالدة؛ ولذا فلا تنفصل عن الدين؛ فقد سارت في ركب الإسلام؛ وحلت حينما حل؛ فكانت أداة التواصل الروحي والديني والفكري بين الأمم والإسلام.

ولكونها لغة القرآن؛ فقد اكتسبت جلاً، وبهاءً، وحباءً، ونفوذاً، ونفاذًا، كما حفظها القرآن الكريم في صورة أقوى أداء للغة من خلال الفصحى العليا التي نزل بها القرآن؛ فحفظ للأمة سليقتها اللغوية، وأرهف ذوقها ببيانه المعجز.

وفضل اللغة العربية وروعتها وعظمتها وتعيزها يتأكد من كونها لغة القرآن، ولما تفردت به من سمات فريدة كلغة إنسانية؛ ولذا فكل متعلم في حاجة إلى معرفة اللغة العربية وفهمها؛ لأن الجهل بها، وسوء فهمها، واللحن فيها يوقع المرء في أخطاء حياتية كثيرة.

ولأن اللغة العربية هي لسان ديننا، ولغة قرآتنا؛ فقد عَرَضَتْ لها تحديات كثيرة استهدفت القرآن أولاً واللغة بالتبعية وتاريخنا وتراثنا كذلك.. وهذه التحديات كانت قدّيمة على يد الاستعمار وتابعه وأصحاب الدعاوى الباطلة، كما أنها حديثة على يد ما نراه في البلاد العربية هذه الأيام من خطر متمثل في مزاحمة الكلمات والألفاظ والمصطلحات الأجنبية للكلمات العربية، ومحاولات إحلال ألفاظ لاتينية، وإشاعتها؛ سواء في الإعلانات أو اللافتات أو غيرها بدعوى التحضر والحداثة؛ حتى تموت الألفاظ العربية نتيجة إهمال استخدامها، ثم تتعلم الأجيال القادمة هذه الكلمات الدخيلة على أنها كلمات عربية؛ وذلك لكثرتها وشيوعها ..

وهذا يجسد بعض ما تعانيه لغتنا العربية في بلاد لغتها القومية هي العربية .  
لذا يأتي أهمية التأكيد على فضل اللغة العربية وأفضليتها وبيان أهمية تعلمها، والتاكيد على الجانب الديني في ذلك، وأبرار ضرورة التحدث بها .

فتعلم العربية؛ يثبت القلوب، ويزيد في الروءة، والمثابرة على تعلمها ومحبتها من الدين، وتحصيلها سبيل لتحقيق المصالح الدينية والدينوية .. وهذا ما أكدته أئمّة اللغة .

وللتتحدث بها فضل عظيم؛ فهي أسرع تأثيراً، وأفضل إبابة وأكثر جذباً وقبولاً لدى المستمع، والمرء مثاب على ذلك دينياً؛ لأن الخطأ في اللغة قد يؤدي إلى الضلال، عندما يختلف المعنى أو يأتي بخلاف المراد ، لذا كان العلماء يستغفرون الله تعالى عندما يُخطئون في اللغة ..

ولذا فقد أقدر العرب قيمة اللغة العربية؛ فحرموا عليها وأولوها مزيد عنابتهم، وسعوا إلى التعمق فيها ودراسة أسرارها؛ إذ هي السبيل لفهم الدين، والمدخل لتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ولذا وضع العلماء اللغة العربية والإفهام فيها بمنزلة العلوم الشرعية.. كما قبحوا اللحن والوقوع في الخطأ، واعتبروا ضياع اللسان أنخطر من ضياع المال.

هذا ما فعله السلف، أما ما نفعله نحن من إهمال اللغة وإضعاف لها، وزاحمة العامية والكلمات اللاتينية لها، وصور التردى اللغوى، وضياع السليقة اللغوية، وفساد الذوق اللغوى؛ فهذا أضحت شائعاً ولا يحتاج إلى تأكيد، وإنما يحتاج إلى دراسات تأملية لسبيل العلاج، والعودة إلى الالتزام بالفصحي.

وهذه الدعوة توکد عليها هنا، وذلك لإحساسنا بأهمية اللغة ودورها الحضارى وضرورتها إحيائها على الأستننا، والرد على هؤلاء الزاعمين بتصويبتها، وتعقيدها، وإعاقتها للإبداع العلمى مما كان له مردوده السىء على استخدام اللغة.

ولعل من أخطر ما يلاحظ هذه الأيام أن هجرت اللغة الفصحى، وتقتشت العامية، وصار التخاطب بها هو المألوف على الأستاذين المتخصصين والمتقدرين وغيرهما.. ولعلك لاترى من يتحدث العربية الفصحى إلا قليلاً جداً في الأوساط العلمية والإعلامية.

ولذلنا فغاية ما توکد عليه هو المحرص على التحدث بالعربية ما استطعنا إلى ذلك؛ حتى يصير ذلك هو دينتنا وأسلوب تخاطباً فيصبح أمراً مألوفاً مارساً ومن السهل أن تألفه الآذان وتعتاد عليه الألسنة، ولا يكون أمراً شاذًا.

وكاتب هذه السطور يعاني من التزامه بالفصحي في كلامه العلمي والخطابي والاجتماعي؛ وربما كان ذلك مثار دهشة من كثيرين من المثقفين والعامية، وهذا السلوك يُرى أنه غير مأثور، وشاذ في وقت تغلبت العامية، على أنني رغم استخدامي للغة سهلة قرية من مستوى المخاطبين إلا أن تعجب الناس من ذلك له عذرٌ لدى، فهم لم تألف آذانهم اللغة الصحيحة، ولم تخر ألسنتهم بها إلا قليلاً.

ونجدنا في حاجة إلى ارتياح حدائق لغة القرآن؛ مستلهمن من تراثنا الإسلامي والعربي ما يقوى صلتنا باللغة، وذلك من خلال رصدنا لكل ما

أتيح لنا ببيان فضل اللغة العربية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال الأئمة ومواقيفهم؛ التي تؤكد فضل العربية، وضرورة الحرص عليها. فنحن إذن في رحلة للبحث عن بعض البر الكامن في أعمق لغة القرآن، من خلال غواص مجتهد؛ محب للغة، متعرس بها، متخصص فيها؛ راجيا التوفيق والهداية والسداد..

ورحلتنا هذه عمدنا فيها إلى بعد عن الدراسات الأكاديمية المتصلة بعلم اللغة، والتجهة إلى المختصين؛ بعيداً عن الخلاف بين علماء اللغة في القضايا اللغوية المختلفة.. وكان حرصنا ولازال على تقديم مادة لغوية مبسطة تناسب القارئ العادي غير المختص، وتكون عنواناً له على التعرف على لغة القرآن الكريم وفضلها وحاجته إليها وأهمية الالتزام بها والحرص عليها.. وهذا بعض ما تستهدفه رحلتنا وساحتنا في بحر اللغة العربية.

وستهل رحلتنا بتناول مدخل في فضل اللغة العربية وبيانها وحاجتها إليها، وذلك من خلال أربعة محاور، نعرض في أولها للغة العربية بين التاريخ والحاضر والمعاصرة العالمية، ثم نتوقف في ثانيها عند العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية، ونخرج في ثالثها لتبليغ بعض خصائص اللغة العربية، ثم ننتهي في رابعها عند تساؤل عن حال اللغة العربية هذه الأيام.. وهذا ما يُفصله المبحث الأول..

ثم نطوف في أرجاء القرآن العظيم؛ لنرصد الآيات الإحدى عشرة التي ورد فيها لفظ (العربية) ودلائلها و المناسبها، وذلك من خلال أربعة محاور، تتناول في أولها وصف القرآن الكريم بكونه (عربياً)، وفي ثانيها نتوقف عند وصف القرآن الكريم باللسان العربي، وفي ثالثها نوضح أفضلية كون القرآن عربياً وليس أحجيناً، وفي رابعها نبين وصف القرآن بالحكم العربي، ثم نعقب على ذلك بوقفة تحليلية مع الآيات التي فصلت القول فيها، وذلك من خلال سبع نقاط فرعية تحليلية، وهذا ما يُفصله المبحث الثاني.

كما نسبح مرة أخرى في اللغة العربية في الحديث النبوي الشريف ونماذج للغته ص وذلك من خلال رصدنا بعض أقواله ص أولاً: في أول من تكلم اللغة العربية، وثانياً: في كون العربية لغة أهل الجنة، وثالثاً: في إيحاء اللغة إليه ص، ورابعاً: نقدم سمات لغته العربية ص، ونماذج من قوة لغته وبيانه، وهذا ما يعرض له المبحث الثالث.

ونعرج في رحلتنا إلى تراثنا العظيم من خلال بيان فضل اللغة العربية لدى الأئمة والعلماء، وذلك من خلال رصدنا لبعض أقوالهم والتعقيب عليها، وذلك من خلال تقديم نماذج مختارة من الأئمة، بداية بعمر بن الخطاب وفضل تعلم اللغة العربية، ثم الإمام الشافعي وأوجه تفضيلها، والجاحظ ومناط فضلها وسر تفوقها، ثم ذكر ما قاله ابن جنی عن اللغة العربية وأهلها، والتعليق ورأيه في خيرية اللغة العربية، ثم نسوق ما قاله القلقشندي في تفضيل اللغة العربية وسرد بعض خصائصها، ثم نعرج لما قاله أصحاب المعاجم اللغوية في فضل اللغة العربية، ثم مقتبسات مما قاله بعض الأئمة. وهذا ما يتناوله المبحث الرابع.

وتنتهي رحلتنا بين الالتزام والطرافة بتقديم مواقف لغوية مختارة من التراث في الحرص على اللغة، والالتزام بها، والحفاظ عليها، وذلك من خلال ثلاثة محاور، نعرض في أولها لكيفية حرص علماء العربية على لغتهم، وفي ثانيها للتحرج اللغوي لدى علماء العرب في دراسة القرآن الكريم، وفي ثالثها تتحدث عن عناية العلماء بالنحو وبالتحدث بالفصحي وعدم الوقوع في اللحن، وهذا ما يعرض له المبحث الخامس.

ولعل المعالجة تكون إضافة لمكتبتنا الإسلامية واللغوية، وتكون تحقيقاً للدغة إلى الالتزام باللغة وبيان فضلها، وتأكيداً على أهمية التحدث بها، وتعلمها، وعدم التفريط فيها.

الله أسأل أن يكون التوفيق قد لازمنا وصاحبنا، وأن يجعلنا من حفظة  
لغة كتابة، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا يوم القيمة، وأن ينفع به  
إن شاء الله..

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سِيِّئَةً أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

والله من وراء القصد ومنه المنة والعون.

المؤلف  
أحمد عبد عوض





## **المبحث الأول: مدخل في فضل اللغة العربية، وبيانها، و حاجتنا إليها**

نسعى من خلال هذا المبحث على التأكيد على بعض أوجه فضل اللغة العربية، وبيان بعض خصائصها، وإبراز العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية، وفضل القرآن الكريم عليها، وهذا ما نتناوله من خلال أربعة محاور: **نعرض في أولها للغة العربية بين التاريخ والحاضر والمعاصرة والعالمية مع إبراز بعض سمات العالمية فيها.**

ثم نعرض في ثانها للعلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية وأوجه تأثيرها بالقرآن، وبيان فضله عليها وعلى العرب.

ونتعرج في ثالثها ببيان خصائص اللغة العربية كإطار عام نعرض من خلاله خاصيتها الاتساع (السعة والخصوصية) وبيان (الإفصاح) .. مستشهدين ببعض أقوال العلماء في الغرب؛ للتأكد على تفوق العربية وفضلها.

ثم ننتهي في رابعها عند تساؤل عن حال اللغة العربية اليوم، وما تتعرض له من تحديات عظام من داخل الأمة ومن خارجها.

كل هذا نعرض له تفصيليا فيما يلى:

### **أولاً: اللغة العربية بين التاريخ والمعاصرة والعالمية:**

#### **أ- اللغة العربية لسان الحاضر:**

اللغة العربية لسان عبادة، ومعجزة نبي كريم ﷺ، وهذا المضمون الروحي للغة العربية هو العبر الروحي الذي انتقلت به حضارة العرب إلى أصقاع العالم في آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وهي كذلك قوم الشخصية العربية، ومناطق قوميتنا، وأسس تراثنا، ومادة ثقافتنا وحضارتنا، وأداة التواصل بين أبناء الأمة وبين إخوانهم في العقيدة.

وقد عصمتها الله على مر الزمن، وتعاقب الأحداث من التمزق والضياع، وظللت جامدة لأبنائها؛ يتخطابون بها عبر الأجيال، ولا يشك المرء لحظة في

أن هذا الثبوت والرسوخ والخلود إنما يرجع إلى كتاب الله تعالى؛ والذى أراد الله القدير أن تستودع اللغة العربية رسالته السماوية الخالدة.

ولذا فالذين يُؤرخون للغة العربية يؤكدون على أفضليتها من الناحية الدينية، والتى أكسبتها كمالاً وجلاً وفضلاً وقدسية، ولا يعجب المرء عندما يقرأ في كتب اللغويين القدماء ما يشير إلى أنها لغة الملائكة، ولغة أهل الجنة، وكان هذا مظهراً من مظاهر تقدسيهم لها، وإنما لهم بكمالها، وباختيار الله لها لتكون لغة خير الرسل وأفضل الكتب.

وقد جعل الله لها قبولاً وقوة، فقد أصبحت اللغة الرسمية للبلاد المفتوحة، التي هجرت لغتها القومية دون أن يجرها أحد على ذلك كما لم يكرهها أحد على الدخول في الإسلام.

فالقرآن الكريم يفتح القلوب بالعربية، وهذا أكسبها جلاً وبهاء وحباً ونفوذاً ونفاذًا.

ولذا فقد حفظ القرآن اللغة العربية في صورة أفضل وأقوى أداء للغة من خلال الفصحى العليا التي نزل بها القرآن، فحفظ للأمة سليقها اللغوية، وأرهف ذوقها ببيانه المعجز.

ويأخذ المرء شعور بالعزّة والفاخر في كون اللغة التي ينطقها هي نفسها لغة الوحي، وهي نفسها لغة الرسول الكريم ﷺ، وهي أداة تواصل روحي ووجوداني وفكري؛ يبلغ بها تفاعل المرء مع دينه العظيم أرقى درجاته من خلال هذه اللغة، وتمكنه منها.

ولستا بمنجد فصلاً بين اللغة العربية والإسلام، فاللغة العربية سارت في ركب الإسلام، وحلت حينما حل. فالعربية من الدين لا تنفصل عنه، ولا ينفصل عنها، وهو ما متفاعلان على نحو ما سنؤكد في مواضع متفرقة تالية.

#### بـ-العربية والمعاصرة:

اللغة العربية لغة حية، فقد غزت أماكن كثيرة في شتى بقاع العالم،

ودخلت أمّاً مختلفة وأثرت في لغاتها، واستقبلت معظم لغات العالم مفردات كثيرة من اللغة العربية؛ مما يدل على كونها لغة حية.. . ولكنها عُرفت بسعتها وثرائها وبما تملكه من وسائل النمو والتطور من اشتراق ومجاز ونحوه وتعريب.. . النج، فقد استطاعت أن تستوعب الثقافات والعلوم المترجمة في عصور الإسلام الأولى.

ونؤكد أن استعمال اللغة العربية لايقت حالاً أمام الإبداع والإيضاح كما أدعى بعضهم، فالإرث الحضاري الرائع لدى علماء المسلمين في شتى المجالات الأدبية والدينية والعلمية شاهد على ما تقدم، حيث ترى لغة أدبية فائقة الرقي، وتستطيع أن تلمس ذلك في الموسوعات العلمية والأدبية التي أبدعوا من خلالها بفکرهم ولغتهم وقوته تعبيرهم.

وفي أيامنا هذه لا يختلف الأمر كثيراً فاللغة عندما لاتساعد صاحبها في التعبير عن أفكاره، فهذا ليس عيباً في اللغة، وإنما في ضحالة الثروة اللغوية وفقرها لديه، وعندما يعجز عن الإبارة بما يلح في فكره؛ فعندها تُتهم اللغة بأنها معوقة الإبداع<sup>(\*)</sup>.

إن الذي لا يستطيع أن يصعد الجبل لعدم قدرته على ذلك، لاينبغى أن يطلب إلى الجبل أن يدنو منه وينخفض إلى الأرض؛ كى يتأتى له ارتياهه والصعود إليه، وبعد ذلك يكون الخطأ لدى الجبل الذي علا وارتفاع وكان ينبغي ألا يظل شاهقاً، ليناسب هؤلاء ضعاف الهمة والعزيمة!!.

ولست أجد كثير اختلاف بين اللغة والجبل، ولا بين هؤلاء المتهمن للغتنا بالعجز عن مسايرة العلم الحديث والمصطلحات العلمية، وبين هؤلاء الذين أنكروا على الجبل علوه وارتفاع قامته.

(\*) لعله من الموضوعية والاصفاد أن نشيد بما قاله الرواى الكبير الاستاذ نجيب محفوظ في كلمته التي القت في حفل تسلیم جائزة نوبل للآداب في استوكهولم يوم ١٩٨٨/٢/٩ والتي قالها عنه الاستاذ محمد سليماني -حيث قال- «وارجو أن تتقدّموا سمعة صدر حديبي لكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هي الفائز الحقيقي بجائزة فمن الواجب أن تسيّع أنفاسها في واحكم الحضارية لأول مرة».

#### **جـ- العربية العالمية :**

اللغة جوهر القومية، والتأمل في تاريخ اللغة العربية قبل الإسلام يجد أنها كانت مزدهرة مكتملة النمو في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكانت مصدر تنافسهم، وإجادتهم، وكانت لهم أسواقهم ومساجلاتهم ومناظراتهم . وبالطبع فهي أداة أدائهم وتعبيرهم، ومصدر اعزازهم؛ غير أن نزول القرآن الكريم بها زادها اردهاراً فوق اردهار، وثبت أركانها وقوى دعائهما.. ثم كانت الفتوحات الإسلامية في الأمسكار وما وراء الأمسكار فإذا باللغة العربية والتي ارتبطت بالدين ارتباطاًوثيقاً وحملت معجزته الكبرى مجده إقبالاً من المناطق التي دخلت في الإسلام، بنفس درجة إقبالهم على الدين «وهكذا أصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية تتضخم جهاتِ من بلاد فارس، وكل العراق، ومعظم مدن آسيا الصغرى، كما تتضخم مصر وشمال إفريقيا وببلاد الأندلس»<sup>(١)</sup>.

وكان من البداية أن تصطدم اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي بلغات الدول المفتوحة، ولكنك مجده أن اللغات المحلية قد تقهقرت ولم تصمد أمام الهدایة التي تحملها اللغة العربية، وأمام نور الله الذي لا سبيل إلى استشرافه إلا بلغة القرآن. حدث هذا مع الإغريقية في الشام والعراق، ومع اللغة الآرامية فيهما، ومع الرومانية في مصر، ومع البربرية في شمال إفريقيا، ومع الفارسية في بلاد فارس.

**وعيتك بعد ذلك أن ترصد سمات عالمية اللغة العربية في:**

\* سعة انتشارها، وصبغها لشعوب عدة بالصبغة العربية، فأخذت بالطابع العربي ديناً ولغة وثقافة وحضارة، وأصبحت من أوسع لغات العالم انتشاراً.

(١) إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٧٠، ص ٢٧٦ وما بعدها.

\* وكذلك وهي في أوج نهضتها رحبة بكثير من الألفاظ التي افترضتها من اللغات الأخرى، واستغلتها في المصطلحات العلمية ولغة الكلام.

\* وصمدت كذلك في كل تاريخها فلم يصبها ما أصاب اللاتينية من تفتت إلى لغات مستقلة. ورغم ما أصاب الدول العربية من مأسى وأضمحلال سياسي خلال عدة قرون؛ إلا أنها اللغة التي ظلت صامدة؛ تقريها الروح الإسلامية وتشد أزرها.

\* لصعوبة الفصل بين الإسلام واللغة العربية فإن الفصل بين العروبة والإسلام تفتتت لوحدة الأمة، وجهل بحقائق الدين واللغة.. فـأى دعوة للقومية والوحدة ينبغي أن تنطلق من اللغة العربية التي حملت تراثاً، وتمثل الأساس القويم للوحدة اللغوية والدينية والثقافية والروحية؛ فالقومية لا تستلزم وجودها إلا عن طريق هذه اللغة، ولا يتحقق دعمها إلا على أساس ذلك اللسان العربي المبين.

\* ونؤكد أن عالمية اللغة العربية هو إقرار بعالمية الإسلام وعموم رسالته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا إِنَّمَا يَنْهَا مُلْكٌ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [الأعراف: 158].

\* \* \*

## **ثانياً، بين القرآن الكريم واللغة العربية:**

احتفظت اللغة العربية بكتابها، وذلك لكونها لغة القرآن الكريم؛ الذي قدر الله له الخلود **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر: ٩]. ثم هي لغة الرسول الكريم ﷺ، الذي نشر هذا الدين العظيم في قوم لغتهم العربية ثم قام المسلمون بدراسة القرآن الكريم، وأحاديث الرسول المصطفى واستبطاط الأحكام الشرعية، وكانت اللغة هي عونهم على ذلك، وسيلهم للفهم والتلقّه.

يقول بروكلمان «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم وبهذا اكتسبت العربية من زمان طوبيل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى».

وكان لنزل القرآن الكريم باللغة العربية أعظم الأثر في توسيط هذه اللغة وتقويتها سلطانها على الألسنة، وتهذيبها وتنقيتها واتساع الأغراض التعبيرية وفنون القول فيها، ويدو ذلك في تنوع المعاني والأخلاق والأسلوب والألغاز.

كما يبدو تأثير العرب بأسلوب القرآن جلياً، إذ انطبع في لغتهم العذوبة والفصاحة والجلالة، فإنه خالط قلوبًا قاسية، فألانها، وطبعاً قاسية؛ فهذبها، وأضفى على اللغة العربية عذوبة لفظ، ورقة أسلوب، وسماعة تركيب، وقوة حجة، ورزانة منطق، ودقة أداء وغزاره معنى<sup>(١)</sup>.

وكان من فضل القرآن على اللغة تهذيبها من المخوشية، والسير بها إلى السهولة وال坦ة، ووضوح القصد وبلغ الغرض من أوضح الطرق، وأجود الأساليب، فإن المسلمين طالما رطبو شفاههم بآياته في صلاتهم وعباداتهم،

(١) محمد كامل الفقى: فضل القرآن على اللغة العربية، الكويت، مجلة الوعي الإسلامي، سبتمبر ١٩٧٦، ص ٢٣.

واستجلوا مظاهر الأدب الرفيع المعجز في عباراته وأمثاله، واستعاراته ومجازاته وكتاباته، وتشبيهه وتمثيله. وكل ذلك حق لهم إلهافاً في الذوق، وفضجاً في الموهبة، وسموا في الخاصة الفنية، كما خلق فيهم الميل الشديد إلى محاكاة أساليبه واقتباس لفاظه.

وقد جاء القرآن مخالفًا لكلام العرب في الطريقة والمذهب، وفي المزلة والصنعة، وإن جانس لغتهم في المادة والتركيب، ولو لا ذلك لذهب في كلامهم. وكان سبile سبيل القصائد والخطب والقصص وغيرها. أو لتدافعه العصور والدول إن لم يذهب، وكان مثله حيثذا مثل ما يبقى من أمور الإنسان.

ولكن أبي الله الآية وإعجازه أن يكون كذلك، فائز القرآن حاوياً لأهم أسباب الارتقاء من الغلبة والانفراد والتميز. فكان سبباً في جميع ما أحدث، وكان نزوله بهذه الطريقة المعجزة سبباً في حفظ العربية واستخراج علومها.

وكان أصل ذلك هو التحدي بها، الذي كان من حكمته أن يتظروا في أساليب القرآن ووجه نظمه ليتذمروا طريقة، ويجربوا عليها أنفسهم ويرحملوها على الإتيان بما تحداهم إليه إن استطاعوا، حتى إذا استيقنوا العجز من أنفسهم، وأجمعوا عليه مع توفر الدواعي وقيام الحاجة إليه، وجود المادة التي منها اختلف، كان ذلك سبباً لمن يخلقهم على اللغة إلى استيانة وجوه الإعجاز؛ فكشف لهم ذلك عن فنون البلاغة وتآدت بهم إلى حيث بلغوا من تبع كلام العرب والكشف عن محاسنه<sup>(١)</sup>.

وسياق الحديث عن تحدي القرآن لهم بلغته في المباحث التالية:

ويتمثل القرآن الكريم بحق انفجاراً هائلاً، «رج أنجاء الحياة العربية على اختلاف مستوياتها، ولاسيما الجاذب اللغوي والبيانى، فقد واجه العرب في

(١) محمد كامل البوهي: المرجع السابق، ص ٢٤ - ٢٦ .

لغتهم شيئاً لم يعهدوه من قبل في لغة شعرائهم وخطبائهم كان جديداً في كل شيء قام به بيانه، فالالفاظ المعروفة بأصواتها تختلف عما عرفوه بمعانيها في القرآن، واختلاف معانى الألفاظ يقتضى من القارئ أن يتعرف عليها حتى يفهم المراد من الجمل والعبارات، وحتى يستوعب المفهوم الكامل للنص المقصود<sup>(١)</sup>.

وهكذا أضاف القرآن الكريم معانٍ جديدة، وأساليب لغوية لم يعهدوها، وتراتيب غير مألوفة على سمعهم؛ إلى غير ذلك مما أكسبها ثراءً ودقّةً وجمالاً.

ولايخفى على القارئ الكريم أن الإنسانية لم تعرف طول تاريخها لغة خلدها كتاب إلا اللغة العربية، وتلك إحدى مصادر إعجاز القرآن، «فقد أعطى اللغة إكسير الحياة وسر البقاء، واستمدت من كلماته دوح الثبات، وشجاعة المواجهة، فكان القرآن الروح التي جعلت العربية الفصحى لغة كل العصور، وكل ما جاءنا من تراث هذه اللغة إنما مرده إلى القرآن؛ الذي فجر علومها، وأطلق عبرية أبنائها؛ فبقيت العربية كما كانت، راسخة القدم مبنيّةً ومعنى قادرة على مواكبة الحضارة؛ تأخذ من غيرها ما يلزمها، وتعطي لغيرها ما يلزمها...»<sup>(٢)</sup>.

ونظراً للعلاقة الطبيعية بين القرآن الكريم واللغة العربية، فقد ساعد القرآن الكريم على ازدهار العلوم اللغوية، وأسهم في ثراء التفكير اللغوي الأدبي والبلاغي والخيالي عند العرب.

ولذا فقد نشأت علوم اللغة لخدمة القرآن الكريم، للمحافظة على نصه، وللمساعدة في فهمه حق الفهم، وهذه العلوم اللغوية العربية من قبل ومن بعد صناعة القرآن، وتدين له بوجودها ثم اتساعها وخلودها.

(١) عبد الصبور شاهين: العربية لغة العلوم والتقنية، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٢، ص ٥٩.

(٢) عبد الصبور شاهين: المرجع السابق، ص ٤٤.

ويؤكد ذلك التطور التاريخي، فقد نزل القرآن الكريم مشرعاً للدين والحياة (بلسان عربي مبين) فكان الحفاظ على نصه من الضياع أو التحرير وكان فهمه فيما يمكن من استنباط أحكام العقيدة والتشريع منه؛ واجب تفريضهما ضرورة الالتزام بما في القرآن من عقيدة وشريعة فلم يكن عجباً أن يبادر أولو العزم وال بصيرة من أفراد الأمة إلى العمل لتحقيق هاتين الغايتين العظيمتين، وقد تولدت العلوم العربية عن محاولة تحقيق هاتين الغايتين<sup>(١)</sup> . ولذا وجب أن نشير إلى أن العلوم اللغوية الأساسية التي نشأت لخدمة القرآن الكريم لا يمكن أن يجهلها من يتصدى لفهم النص الديني، قرآناً كان أو غير قرآن، وإنما كان أشبه بـ*بن* يجري عملية جراحية، وليس معه أدوات لذلك، ولم يدرس علم التشريح . . . والتأمل في العلوم اللغوية يجد عظمة هذه اللغة، وتفرد خصائصها، وهذا ما نزيده إيضاحاً فيما يلى.

(١) محمد حسن جبل: علم اللغة العام، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٨٢، ص ٨٠ .

### **ثالثاً: خصائص اللغة العربية:**

في إطار حديثنا عن تميز العربية وأفضليتها؛ نتناول أبرز الخصائص للغة العربية والمتمثلة في: البيان، والسعنة، وكثرة حروف المبني، والإعراب، وكثرة المفردات، والاشتقاق، والتوكيد، وتنوع الأساليب والعبارات، والقدرة التعبيرية على المعانى الثانوية، وأنها تكتب كما تقرأ، وقابلية المشتقات للتصريف، والإيجاز، والمجاز، وقربها من المنطق، وقدرتها على الأخذ والاستيعاب من غيرها ..

وكل خصيصة مما تقدم لها تفصيات عدة، وقد عُنِيت مؤلفات تراثية وحديثة بهذا الأمر؛ بما لا يدخل في نطاق اهتمامنا هنا.

ونظراً لضيق المقام فإننا نتناول خصيصتين فقط من خصائص اللغة العربية، وهما: السعة (الخصوصية)، والبيان (الإفصاح) للتاكيد على فضلها وأفضليتها من خلالهما، وهذا ما نفصله فيما يلى.

والمتأمل في العلوم اللغوية يجد عظمة هذه اللغة، وتفرد خصائصها وهذا ما نتناوله هنا من خلال خصيصتي السعة، والبيان.

#### **أ- سعة اللغة العربية وخصوصيتها:**

تميزت اللغة العربية بأنها أوسع ثروة في أصول الكلمات والمفردات من كل اللغات السامية؛ فهى تشتمل على جميع أصول هذه اللغات وتزيد عليها بأصول كثيرة؛ احتفظت بها ما لا يوجد له نظير في أي لغة أخرى، فقد جُمِع للأسد خمسماة اسم، وللعنوان مائتا اسم، وللعمل ثمانيين اسم، وللسيف ألف اسم، وهكذا؛ وهذا يتوقف على طبيعة العرب في السخاء الطبيعي والمادي، والذي كان له مردوده على سخائهم اللغوي، ولذا فقد وضعوا بعض المعانى أسماء تفوق التصور والتخييل. وبذا اتسعت اللغة العربية اتساعاً عظيماً، ويزداد ذلك في غزارة مفرداتها، وكثرة الاشتراق فيها، ووجود التحت، والقلب والإبدال، وسعة صدرها في التعرير والمجاز والكتابة

والنقل، واتسعت لعلوم الحضارة، وعرفت بكفایتها النادرة، ومتزلتها السامية  
وقوة أدائها.

ولذا يقول السيوطي في (الزهر) نقاً عن العلماء في باب (سعة اللغة):

قال بعض الفقهاء: كلام العرب لا يحيط به إلا نبى.

قال ابن فارس: وهذا كلام حَرَى أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحداً  
من مضى أدعى حفظ اللغة كلها، فاما الكتاب المشوب إلى الخليل وما في  
خاتمه من قوله: هذا آخر كلام العرب؛ فقد كان الخليل أَرْوَعَ وأتقى  
لله تعالى من أن يقول ذلك. وقد سمعت على بن محمد بن مهروبة يقول:  
سمعت هارون بن هزارى يقول: سمعت سفيان بن عُيُّنة يقول: مَنْ أَحَبَّ أَنْ  
ينظر إلى رجلٍ خُلُقَ من الْذَّهَبِ وَالْمِسْكِ فَلَيَنْظُرْ إِلَى الْخَلِيلِ بْنَ أَحْمَدَ.

قال: وسمعت النضر بن شُمَيْل يقول: ما رأيت أحداً أعلم بالسنة بعد  
ابن عون من الخليل بن أحمد. قال: وسمعت النضر يقول: أَكَلَتِ الدُّنْيَا  
بَادِبَ الْخَلِيلِ وَكَتَبَهُ وَهُوَ فِي خُصْنَ لَا يُشَعِّرُ بِهِ.

قال ابن فارس: فهذا مكان الخليل من الدين؛ أفتراه يُقدِّم على أن يقول:  
هذا آخر كلام العرب؟

ثم إن في الكتاب المرسوم به من الإخلال ما لا خفاء به على علماء  
اللغة، ومن نظر في سائر الأصناف الصحاحية علم صحة ما قلناه، و هذا  
الذى نقله عن بعض الفقهاء نص عليه الإمام الشافعى رضى الله عنه، فقال  
في أوائل الرسالة: لسانُ العرب أوسُّ الالستة منهباً، وأكثُرُها الفتاواً، ولا  
نعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى، ولكنه لا يذهب منه شيئاً على  
عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرقه، والعلم به عند العرب كالعلم  
بالسنة عند أهل الفقه، لا يعلم رجلٌ جميع السنن فلم يذهب منها عليه شيء،  
إذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن. وإذا فرق علم كل واحد  
منهم ذهب عليه الشئ منها، ثم ما ذهب منها عليه موجود عند غيره، وهو

في العلم طبقاتٌ منهم الجامعُ لاكثرةً وإنْ ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لاقله ما جمع غيره، وليس قليلٌ ماذهب من السُّنن على مَنْ جمع أكثرها دليلاً على أن يطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم، بل يطلب عند نظرائه ماذهب عليه، حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله ﷺ بأبى هو وأمى، فتفرد جملة العلماء بجملتها وهم درجات فيما وعوا منها، وهذا لسانُ العرب عند خاصتها وعامتها لا يذهبُ منه شئٌ عليها ولا يطلب عند غيرها، ولا يعلم إلا من قبله منها، ولا يذكرها فيه إلا من اتبعها، وقبله منها، فهو من أهل لسانها، وعلم أكثر اللسان في أكثر العرب أعلم من علم أكثر السنن في العلماء «هذا نص الشافعى بحروفه» ونجد تصديقاً معاصرًا لسعة اللغة العربية في قول حافظ إبراهيم على لسان العربية:

وَسَعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لِفَظَّاً وَغَايَةً  
فَكَيْفَ أَضْبَقَ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةِ  
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدَّرُ كَامِنْ  
فَهَلْ سَاءَلُوا الْغَوَاصِنَ عَنْ صَدَفَاتِي  
فِيَا وَيَحْكُمُ أَبْلِي وَتَبْلِي مَحَاسِنِي  
وَفِيكُمْ - وَإِنْ عَزَ الدَّوَاءُ - أَسَاقِي؟

ولذلك لعجب أن ترى العلامة الفرنسي الكبير أرنست رينان يقف في كتابه (تاريخ اللغات السامية) موقف المنصف أمام عظمة العربية، وجلال رواعتها، وخصب مادتها فيقول:

«إن هذه اللغة قد بلغت حد الكمال في قلب الصحراء عند أمّة من الرجال؛ ففاقت اللغات بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت مجهولة من الأمم؛ لكنها من يوم ظهرت للناس في حل حل الكمال، ولم يُعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا نعلم شيئاً لهنّه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة كيانها؛ خالصة من كل شائبة».

كما نرى غيره من علماء الغرب يشيدون باللغة العربية وبسمتها وفضلها؛  
على نحو ما نوضح فيما يلى:  
**بـ-اللغة العربية في مرآة علماء الغرب:**

نورد هنا مقتبسات مما قاله بعض علماء الغرب المنصفين بشأن تميز اللغة  
العربية(\*)، فيما يلى:

\* عبد الكريم جرمانوس: ساعد القرآن الكريم على روعة العربية،  
وخلودها، فقد كان لأسلوبه أثر عميق في دخول الناس في الإسلام كما  
اتسمت العربية بالمرونة التي لا تُبارى.

\* لويس ماسينيون: أدخلت اللغة العربية في الغرب طريقة التعبير  
العلمي، والعربية من أدق اللغات، واتسمت بالإيجاز الذي لا شبيه له في  
سائر اللغات، والذي يعد معجزة لغوية كما قال البيروني.

\* يوهان فلك الألماني: تثلّل العربية الفصحى رمزاً لغويّاً لوحدة عالم  
الإسلام، وقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل  
محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر.

\* جاك بيروك الفرنسي: إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي  
في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الفصحى بالذات فهي التي  
حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا وكانت عاملاً قوياً فيبقاء الشعوب  
العربية.

\* جورج سارطون: إن الوحي نزل على الرسول الكريم باللغة العربية،  
وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحي ولغة أهل الجنة، وقد أكد الرسول  
الكريم على وجوب قراءة القرآن الكريم باللغة العربية، فكان من نتائج هذا:

(\*) أخذنا في هذا الجزء بكتاب الأستاذ أنور الجندى «الفصحى لغة القرآن» بيروت - دار الكتاب اللبناني،  
ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

ذلك الاتجاه العقلى الواحد فى التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية - ولقد اتفق أن أصبحت اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات فى الوجود، إن خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جداً، ويعکن تلك المفردات أن تزداد بلا نهاية.

ولغة القرآن تمثل اتفاقاً عجياً، فالرسول الكريم مع أنه أمى كان يملك ناصية اللغة؛ إذ آتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلها قادرة على تدوين الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفاته. وهكذا جعل القرآن الكريم من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة.

\* جوستاف جرونيباوم: ما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها؛ فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليس متزلفها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله فيسائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالامر فيها واضح في ضروب المجاز والاشتقاق.. الخ، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعنى.

\* كارل نيليو: اللغة العربية تفوقسائر لغات العالم رونقاً وغنّى، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها.

\* فان ديك: العربية أكثر لغات الأرض امتيازاً، وهذا الامتياز من وجهين: الأول من حيث ثروة معجمها، والثانى من حيث استيعاب آدابها.  
تعقيب:

رغم أن ما ذكرناه عن بعض علماء الغرب لا يضيف جديداً إلى فضل العربية بيد أننا نؤكد أنها لها من المكانة والمنزلة بحيث لا يُنكر ذلك على لسان العدو والصديق.

ومن مجموع أقوالهم فإنه يستنتج أنهم يقررون عدة حقائق مهمة

أبرزها الناحية الدينية والقومية في انتشار اللغة العربية وارتباطها بالقرآن الكريم الذي أتاح لها أعظم فرص البقاء، والخلود، وكذا الإقرار بتميز خصائصها كلغة من حيث كونها أقدر اللغات على التوالي والاشتقاق، وأغنى اللغات بالترادفات، وأكثرها إيجازاً، وكذا الإشارة لكونها لغة كل المسلمين وجاء من حقيقة الإسلام، وهي ترجمان لوحى الله ولغة كتابه ومعجزة نبيه ولسان دعوته وسبيل العبادة وتلاوة القرآن؛ فالعربية لغة كل المسلمين وثقافتهم وفكرهم.

وسمو العربية آت من منزلتها الروحية ومن منزلتها اللغوية الاستيعابية الحضارية.

وإسهامها في الحياة العلمية والتعبير العلمي لدى العرب تأكيد لمرونتها وسعتها.

ولا نغفل الإشارة إلى الجانب القومي في اللغة وكونها مُجمعة للمشارع ومقربة للفكر؛ ولذا فكانت أحد عوامل صمود أهل الجزائر أمام الاستعمار الفرنسي، وحافظت لهم شخصيتهم واستقلاليتهم واتمامهم.

#### جـ- اللغة العربية والبيان:

اختصت اللغة العربية بخاصية (البيان)، وهذا يتضح من قوله سبحانه **﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾** [الشعراء: ۱۹۰].

حيث وصف الله تعالى اللسان العربي بأبلغ ما توصف به اللغة وهو (البيان) **﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾**، والبيان هو أهم وظائف اللغة وأفضل ما توصف وتحتفظ به، وعندما يرد الوصف من الخالق سبحانه دل ذلك على تحقق هذه الصفة فيها بقدر عظيم؛ وعلى وفائها بالإبانة من أكمل الوجوه. ويتمثل بيان العربية في كمال البيان اللغوي وليس مجرد الإبانة لأن هذا يتحقق بغير اللغة العربية.. وفي مجال العبارات العربية تجد سعتها ووضوحاها وكثرة تردادها، وغناء ألفاظها، وثراء مادتها، وغزارة مفرداتها، وحسن تاليف

مباني الكلم؛ فضلاً عن وجود خصيصة الاشتقاء، والتي جعلت اللغة العربية أكثر إنتاجاً وتوكيداً.

والمتأمل في صدر سورة الرحمن يجد بعض النعم والآلاء، التي امن الله بها على عباده، ومنها (نعمه البيان) وجاءت هذه النعمة مقدمة على نعم كونية عظيمة، حيث يقول تبارك أسماؤه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤-١]، وهنا يبدو تفوق العربية حيث نجد الرابط بين القرآن - الذي هو عربي - وبين الإنسان وبين نعمة البيان؛ التي هي أحدى نعم الله العظمى، وجاء فيها قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قدم رجالاً من المشرق فخطبوا، فعجب الناس لبيانهما؛ فقال ﷺ «إن من البيان لسحراً» والمعنى: إن هذا البيان قد يبلغ في روعته وشدة تأثيره على النفوس واستحوذه على المشاعر ما يليغه السحر.

والبيان قال عنه الجاحظ أنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو المعنى الذي سمعت الله عز وجل يدحه، ويدعو إليه، ويبحث عليه؛ بذلك نطق القرآن؛ وبذلك تفاخرت العرب (البيان والتبيين ١/٧٥ - ٧٦).

ويتسع البيان لمعنى الفصاحة، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب؛ مع وضوح اللسان وكشفه وإيصاله وإظهاره للمقصود. ومن هنا كانت الفصاحة إحدى نعم الله تعالى، ولذا يستعاذ من العي والخسر، وقد يما تعودوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهمما، قال التمر بن تولب :

أعوذُ بِرَبِّي مِنْ حَصْرٍ وَعَيْنٍ  
وَمِنْ نَفْسٍ أَعْالَجُهَا عِلَاجًا  
وَهَذَا كَوْلُ بَشَارَ بْنَ بَرْدَ:  
وَعَيْنُ الْفَعَالِ كَعَيْنِ الْمَقَالِ

ويقول أحدهم (اسماعيل بن محمد) مادحاً نفسه:

وإني لسانى مقولٌ لا يخوتنى      واني لما آتى من الأمرِ مُقينٌ  
وفي فضل الفصاحة: قيل لبُزْر جمهَرَ بن البختكان الفارسي: أى شيء  
أستر للعَيْ؟ قال: عقلٌ يجمَلُه، قالوا: فإن لم يكن له عقلٌ، قال فمالٌ  
يستره. قالوا: فإن لم يكن له مالٌ. قال: فإخوانٌ يُعْبِرُونَ عنه. قالوا: فإن  
لم يكن له إخوانٌ يُعْبِرُونَ عنه. قال: فيكون عيَّا صامتاً. قالوا: فإن لم  
يكن ذا صمت. قال: فموتٌ وحْيٌ خيرٌ له من أن يكونَ في دار الحياة.  
(البيان والتبيين / ١٧).

وقد سأله موسى عليه السلام الله القدير حين بعثه إلى فرعون، يبلغ رسالته، والإبارة عن حجته، والإفصاح عن أداته؛ فقال حين ذكر القصة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه **﴿وَاحْلُلْ عَدْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾** **﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾** [طه: ٢٨، ٢٧].

وقال موسى عليه السلام **﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ رَدْعًا يُصَدِّقُنِي﴾** [القصص: ٤٤]. وقال **﴿وَيَضْبِقُ صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي﴾** [الشعراء: ١٣] رغبة منه في غاية الإفصاح بالحججة والبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع.

وقد استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام، وَحَلَّ عَدْدَةً مِنْ لِسَانِي، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة **﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتُ سُولْكَ يَا مُوسَى﴾** [طه: ٣٣].

وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ حال قريش في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصححة القول، وبلاهة الآلسنة **﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخُوفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْرِ حِدَادًا﴾** [الأحزاب: ١٩] . ، وقال: **﴿وَيَشْهُدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَّا يُخَاصِّمَ﴾** [البقرة: ٢٤] ، وقال: **﴿أَلَهُمَا خَيْرٌ أُمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكُمْ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِّمُونَ﴾** [الزخرف: ٥٨].

ولذا أرسل الله كل نبى بلسان قومه؛ لبيان لهم؛ لأن مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استنانة كان أحمد.

ولذا يقول الباحث في فضل الإباهة والفصاحة «إذا كان المعنى شريفاً وللهفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربية الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد؛ ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبارية، ولا يذهب عن فهمها عقول المجهلة».

(البيان والتبيين: ٨٣ / ١).

ونخلص إلى أهمية الفصاحة، وكونها تحقيقاً لمعنى الإجادة في اللغة والخلوص من اللحن، وسلامة التراكيب، وغروبة الألفاظ، وطلاقة اللسان بالكلام العربي، وسلامة النطق هي الفصاحة، ولهذا - وكما سيتضح - سأ الصحابة رسول الله ﷺ «مالك أفضحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟» قوله ﷺ عن نفسه «أنا أفضح العرب».

**ولأهمية الفصاحة قال الرازي** «الفصاحة أشهر العلوم وأجلها لأنها طريق الإعجاز القرآني، وهي ترجع إلى اللفاظ والمباني».

(ارجع إلى نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ١١٥).

ولعل تناولنا للبيان والفصاحة يقودنا إلى شيء من الإفاضة في حال لغتنا العربية هذه الأيام، لنرى الفرق بين الصورة المثالبة للعربية وبين واقعها المعاش، وهذا ما نقصله فيما يلى.

#### **رابعاً: لغتنا العربية اليوم:**

ثم تساءل مهم نحاول الإجابة عنه عن حال اللغة العربية هذه الأيام. لا يعجب المرء كثيراً عندما يتأمل في واقعنا اللغوي والتاريخي، فيرى أن لغتنا العربية مثلت تحدياً عظيماً أمام أفكار هدامة استهدفت اللغة، ولعل ما سُمي بمشكلة الفصحى والعامية أحد مظاهر هذه التحديات، وهي مشكلة صنعوا الاستعمار وأعوانه عندما وجدوا لغة عليا للتفكير والأدب وهي الفصحى، وفي المقابل لغة مستعملة في التخاطب اليومي وهي العامية، وهذا أمر موجود فيسائر اللغات الحسية، وليس ثمة مشكلة في ذلك.

«لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية، ليحارب الفصحى، تمزيقاً لوحدتنا اللغوية والفكرية، فراجعت دعاوى تهم الفصحى بالعمق والبداءة وتلقى عليها مسئولية تخلفنا، وتدعى للعامية؛ فتزعم لها القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوي الحديث، وترى فيها المفتاح السحري لتقدمنا العلمي والحضاري والوسيلة الميسرة لتفصيف الجماهير وتعليم الأئم»<sup>(١)</sup>.

والأدهى من ذلك أن اقترنت الدعوة إلى العامية بوصف بعضهم للهجة العامية المصرية بأنها لغة سابقة للغة العربية والدعوة إذن إلى التماس لغتها القديمة، ومنهم من قال أن اللغة العربية لغة أجنبية، وأنه يجب أن تحول؛ لتعود مصر إلى لغتها القديمة.

وهذه الدعاوى لاحقيقة لها، وقد ردّ عليها، واثُّهم بعض العلماء من قال بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية بأنهم قوم مجرمون؛ يستأهلون التأديب. وسعياً إلى تغريب اللغة العربية، وإقصاء القرآن أساساً عن طريق اللغة شجعت حكومة الاحتلال على إنشاء جرائد باللغة الدارجة، كما ظهرت مؤلفات تدعو للغرض ذاته، وقد أحسن شاعرنا حافظ إبراهيم عندما لخص هذه الدعاوى على لسان العربية بقوله:

(١) عائشة عبدالرحمن: لغتنا والحياة، القاهرة، دار المعارف، بمصر، ١٩٧١، ص ٩٣.

رجعت لنفسي فاتهمت حصانى وناديت قومى فاحتسبت حياتى<sup>(١)</sup>  
رمونى بعمق فى الشباب وليتنى عقمت فلم أجزع لقول عداتى  
ولعلك تدهش عندما يحمل بعض المثقفين لواء الإصلاح والتمصير والتيسير  
والتلخيص فيدعون إلى كتابة الحروف العربية باللاتينية، أو استبدال الخط العربي  
باللاتيني .. ومن ذلك دعاوى أحمد لطفي السيد وسلامة موسى وعبد العزيز  
فهمى ولويس عوض . وهذه الدعاوى كلها زائفه وباطلة ومغرضة ، وهى تصدر  
عن أناس يعلمون أن اللغة العربية هي حجر الزاوية فى وحدة هذه الأمة وكيانها  
كله ، وأن الأخذ بدعاؤى التطوير والتعديل والتحسين هو فصل لهذه الأمة عن  
تراثها ، وإبعادها عن هداية لغة القرآن الكريم .

كل هذا تحت دعوى: إصلاح اللغة، وتيسيرها، وتبسيطها وتهذيبها  
وتسهيل كتابتها .. وهى فى الواقع دعاوى لإزالتها وهدمها وإبعادها .  
وثم مغالطات كثيرة أخرى ودعاؤى باطلة أريد بها النيل من العربية  
وتشويها وبيان عجزها ، وعدم قدرتها على الوفاء بحاجات العصر ولا نجد  
سوى أن نقرر «أن اللغة العربية لو كانت عاجزة عن الوفاء بمتطلبات الحياة  
والعصر مازلت بها لغة القرآن الذى لا يأتى به الباطل من بين يديه ولا من خلفه  
تنزيل من حكيم حميد»<sup>(٢)</sup>.

لكنك عندما تتأمل واقع اللغة العربية هذه الأيام ، ترى أنها قد هانت  
وأهملت على يد أبنائها ، وصح أن تقول أن هناك أمة لغوية ، وهناك ضعف  
لغوى ، وهناك فساد للذوق اللغوى ، وهناك تغريب لغوى ولا نستطيع أن نناقش  
أى ظاهرة مما تقدم بمبعد عن عمليات تعليم اللغة العربية فى مدارستنا ، وعن جفاء  
بل وجفاف ما يقدم من مادة لغوية ، وكون ما يدرس يعزل عن السليقة اللغوية وهذا

(١) حصانى : عقلى.

(٢) جمال مصطفى اليسوى ، أحمد عبد عوض: اللغة العربية ماذج أدبية نقدية ، مطبعة أورفو ، ١٩٩٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

أمر لا يدخل في نطاق اهتماماتنا هنا، ولكن وجوب الإشارة إليها، وترتب على ما تقدم أن اللغة العامة تسود على السنة المعلمين للغة في التعليم العام بل والجامعة وعلى السنة الدارسين للغة، بل والمتخصصين فيها؛ حيث يتعامل غالبية هؤلاء باللغة العالمية رغم عملهم بميدان اللغة العربية تعليماً وتعلماً وتحصصاً.

وإذا كان المتخصصون يتساهلون في استخدام اللغة العربية والتحدث بها، فليس عجبًا أن يتدنى التساهل إلى من دونهم، فالمثقفون يستخدمون كلمات أجنبية في أحاديثهم، وكان العربية تعجز عن الوفاء بتعبرهم، وترصد صوراً كثيرة لعدم العناية بالعربية وتغلب الكلمات الأجنبية عليها في الإعلانات وأسماء الشوارع وال محلات وعلى لسان المحاضرين، وفي حياتنا اليومية، كما تجد الترخيص التثدي في استعمال اللغة والأخطاء الكثيرة فيها، واستخدام العامة المبتذلة والسوقية في الصحف والمجلات وفي الإذاعتين المسموعة والمرئية، وعلى لسان المعلقين والمحاضرين وفي المسارح والأغاني والندوات وغيرها. وهذا كلّه يؤكد وجود ظاهر متعدد في مجتمعنا لنبذ الفصحى في الكتابة والتحدث، وفي حملات التغريب، وشيوخ الأخطاء التي لاتخطتها العين، وأضحى ذلك مقبولاً لكثرة تكراره وشيوعه، وعندئذ تعم الكارثة، ويضيّع لساننا العربي.

وختاماً فإن اللسان العربي ينبغي أن يحافظ عليه نظراً وكتابته دون خضوع لآلية مبررات، تؤدي في النهاية إلى التبخّط والخلط الشديد بينه وبين الألسن الأخرى، حتى ولو كان التبشير خاصاً بالسياحة والاستثمار والانفتاح، تلك الدعاوى التي يعاني منها مجتمعنا معاناة قد تؤدي في النهاية إلى فقدان الهوية، وأقوى مقوم للوحدة بين الشعوب العربية<sup>(١)</sup>.

وحفظنا على اللغة، هو حفاظ على تراث هذه الأمة، وعنابتنا باللسان العربي هو إقبال وإعلاء وافتخار لنا، وهو واجب جدّ عليه ديننا على نحو ما سيتضح في المباحث التالية.

(١) أحمد سمير بيبرس: الواقع اللغوي والهوية العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٩ ، ص ١١٧ .





المبحث الثاني

اللغة العربية  
فى القرآن الكريم



## **المبحث الثاني : اللغة العربية في القرآن الكريم**

فُضلت اللغة العربية بالقرآن الكريم، وبه شرُفت وارتقت وخلدت وعلت، كما استطاعت أن تكون أداة طيعة لآيات الذكر الحكيم، ومعانيه العظيمة، وذلك بأساليبها التعبيرية الفائقة البديعة.

والعلاقة عضوية وأساسية بين اللغة العربية والقرآن الكريم ، فاللغة وعاء الكتاب الحالد، فيها صُب، وبها نزل وحُفظ وخُلد، والقرآن الكريم شرفها، ورفعها، وزادها فخراً وثراءً وبهاءً وعظمة؛ ولذا فكل مسلم يحتاج إلى هذه اللغة -ال الشريفة-؛ ليفقه دينه، وليرؤى العبادات المفروضة، ولكي يأخذ الدين من متبعه الأصيل .

كما أن كل عالم ومتعلم في حاجة لهذه اللغة؛ لأنها أساس كل علم ومناطه؛ أكان ذلك من علوم الدين -وهذا أوكد- أو من علوم الدنيا -وهذا أثبت- .

لكتنا في حاجة للتأمل في كتاب الله العظيم؛ لنرصد الآيات التي ورد فيها لفظ (العربية) في القرآن الكريم ودلائلها و المناسبتها .

والحق أننا لا نجد لفظ (العربية) مجردًا و مُعرِفًا هكذا في القرآن الكريم، ولكن نجد ما يدل عليه في اشتراطتين اثنين هما: (عربي - في ثلاثة مواضع) و (عربيا - في ثمانية مواضع) أي في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم، وهذا ما نوضحه فيما يلى :

### **ألفاظ العربية في القرآن الكريم:**

وُصف القرآن الكريم بكونه (عربيا) في ست آيات، وجاء وصفه باللسان العربي في ثلاث آيات، وجاء تفصيل كونه عربيا، وليس أعمجيا في آية واحدة.. وجاء وصفه بالحكم العربي في آية واحدة، وبذذا يكون مجموع مادرد من ألفاظ (العربية) في القرآن الكريم إحدى عشرة آية باشتراطتين اثنين هما (عربيا - عربي) .

وهذا ما نفصله فيما يلى :

أولاً، وصف القرآن الكريم بكونه (عربياً) :

الموضوع الأول :

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وصف الحق سبحانه الكتاب المبين (القرآن الكريم) بأنه عربي، و (قرآن) جاءت منصوبة على الحال، و (عربياً) نعت لقوله (قرآن).

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية «ولغة العرب أوضح اللغات وأبياتها وأوسعها وأكثرها تادية للمعاني؛ التي تقوم بالنفس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض». (٤٦٦/٢).

أما الإمام العلامة أبوالفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي صاحب تفسير (روح المعانى) فقد أفرد بضع ورقات لتفسير قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فكان مما ذكر:

«اللغة العربية هي إحدى اللغات التي علمها آدم عليه السلام وكان يتكلم بها وبغيرها.. وادعى بعضهم أنها أول اللغات وأن كل لغة سواها حدثت بعدها إما توفيقاً وإما اصطلاحاً، واستدلوا على أسبقيتها بكون القرآن كلام الله تعالى، وهو عربي، وفيه ما فيه، وهي أفضل اللغات، حتى حكم شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أبي يوسف عليه الرحمة كراهة التكلم بغيرها لمن يحسنها من غير حاجة، ثم أورد حديث «أجبوا العرب لثلاث: لأنى عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»، (وهو مرو عن ابن عباس في رواية وعن أبي هريرة في رواية أخرى، وأخرجه الطبراني، والحاكم، والبيهقي

وآخرون)، ثم يقول: ولا يخفى على الخبير بمزايا الكلام أن في الكلام العربي من لطائف المعانى ودقائق الأسرار ما لا يستقل بأدائه لسان.

**وأخرج ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس** «أن آدم عليه السلام كانت لغته في الجنة العربية فلما أكل من الشجرة سُلِّبها فتكلم السريانية فلما تاب ردها الله عليه». **وقال عبد الملك بن حبيب**: كان اللسان الأول الذي هبط به آدم عليه السلام من الجنة عربياً إلى أن بَعْدَ وصار سريانياً، وهو منسوب إلى أرض سوريا وهي أرض الجزيرة.

ثم يقول «وأول من اعدل لسانه عن السريانية إلى العربية هو يعرب ابن قحطان فهو أول من تكلم بها» وهذا ما ذكره ابن عساكر في التاريخ بسند رواه عن أنس بن مالك.

ثم يقول: واللغة العربية كانت موجودة قبل إسماعيل عليه السلام وكانت لغة حمير، لكن أول من تحدث بالعربية المحضرية (عربية قريش) هو إسماعيل عليه السلام، وكان ذلك من الله تعالى كما أوضحت ذلك الأحاديث (التي سنوردها في البحث الثالث) (الألوسي ١٧١/١١ - ١٧٤).

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِيلُونَ﴾. أى لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارج عن طرق البشر مشتمل على ما يشهد له أنه منزل من عند خالق القوى والقدر.. وهذا بيان لحكمة إنزاله بتلك الصفة.

واللام في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني لام التعليل على طريق الاستعارة التبعية.

#### الموضع الثاني :

يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِمَلَئُومٍ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

أى أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي؛ وذلك لكتاب يفهمه العرب، ويقضوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق الآدميين؛ نازلاً من رب العالمين.

وقال الطيبى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى فصيحاً ناطقاً بالحق ساطعاً ببيانه؛ لعلهم يحدث لهم التأمل والتفكير فى آياته، وبيناته الوافية الشافية؛ فيدعون ويطيعون.

فنزل القرآن بالعربية - وهي لغتهم - عساه يكون سبيلاً لتقواهم لله تعالى فإن لم يتقوها فلا أقل من أن يُحدث لهم ذكرها، وشرفاً، وصيناً حسناً.

وجاء وصفه بالعربية لبيان معنى الكمال، ولذكرهم بإجازة وحثهم على الأخذ به، والاتباع بما فيه، لأنه لا توجد عوائق لغوية؛ تحول بينهم وبين فهمه والاستماع إليه، والاعتبار بما فيه.

### الموضع الثالث:

يقول الحق جل شأنه ﴿وَلَقَدْ ضَرَبَنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لِّمَلَئِمٍ يَنْذَرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوْجٍ لِّمَلَئِمٍ يَقُولُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى هو القرآن بلسان عربي مبين؛ لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان، ووضوح، وبرهان.

وهنا نلاحظ الاستطراد في الوصف بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِي عِوْجٍ﴾ كوصف ثان للقرآن الكريم، فهو ليس عربياً فقط، ولكنه مع ذلك لا التواء في أسلوبه ولا غموض في لغته، فقد اشتمل - كما يقول الإمام الألوسي - «أبدع الطرائق الرائعة، وأعجب الأساليب الفائقة اللاعنة».

ولذا فهنا إضافة بديعة في قوله تعالى ﴿غَيْرَ ذِي عِوْجٍ﴾، أى لا اختلال فيه بوجه من الوجه، وهو أبلغ من مُعوج، والعوج بالكسر يقال فيما يدرك بفكر وبصيرة، والعوج بالفتح يقال فيما يدرك بالحس.

ولذا غير سبحانه بالعوج بالكسر ليدل على أنه بلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجاً، فضلاً عن الحس. وقبل المراد بالعوج اللبس والشك ونجد تعبيداً لاستقامة القرآن الكريم عن الأعوجاج في قوله سبحانه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عِبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوْجَاجًا﴾ [الكهف: ۱]. أى لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيناً ولا ميلاً بل جاء معتدلاً مستقيماً وأصحاً بيناً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْهُمْ يَقْرَئُونَ﴾ اللام: للتعليل، أى لعل نزوله بهذه الكيفية من مناسبة لغته للغتهم، ومن كونه لا ليس فيه ولا اعوجاج ولا تعقيد يكون داعياً لهم للاهتماء، ولعلهم يخذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد، حيث لا عذر لهم في لغة القرآن التي لاتخفي عليهم.

#### الموضع الرابع:

يقول الحق سبحانه ﴿ حَمٌ ﴾ تَبَرِّيْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ۲ ﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ۳ ﴾ [فصلت: ۳-۱].

في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى بُنتَ معانيه، وأحكامه ويسرت آياته، واستقامت معانيه، وصفت لغته، وارتقت أسلوبه وهذه هي الصفة الأولى (تفصيل الآيات) ثم وُضفت بكلمة ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ استطراداً في تبيان خصائصه، وتكملاً وتوضيحاً ونشرًا ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى في حال كونه قرآن عربياً، بينما واضحأ، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، فهو معجز لنقطاً ومعنى.

والمعنى في الآية الكريمة: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى هو كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُنتَ معانيه، ووضحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والآحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال، أى في حال كونه قرآن عربياً واضحأ جلياً نزل بلسان العرب (القوم يعلمون) أى لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه؛ فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسراره إلا من كان عالماً بلغة العرب.

وتجدر بالإشارة أن هذه الآية الكريمة، كانت إحدى الروادع والقوارع والزواجر، التي جعلت عتبة بن ربيعة ما إن سمعها حتى رجع إلى قريش بوجه غير الذي ذهب به؛ كما أخرج ابن المنذر والبيهقي وابن عساكر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال:

«حدث أن عتبة بن ربيعة وكان أشد قريش حلماً؛ قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد، يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فاكُلْمِه، فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضه، ويُكَفَّ عننا؟ قالوا: بل يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فذكر الحديث فيما قال له عتبة، وفيما عرض عليه من المال، والملك، وغير ذلك. حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع مني». قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٣﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ فلما سمعها عتبة أنسنت لها. وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها ثم قال: «سمعت يا أبا الوليد؟» قال: سمعت: قال: «أنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نخلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إنني قد سمعت قوله مثلك قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة والله ليكونن لقوله الذي سمعت بـأنا».

وأخرج أبوابن حماد والبيهقي كلامهما في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما قرأ النبي ﷺ على عتبة بن ربيعة ﴿٤٥﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٦﴾ أتى أصحابه فقال: ياقوم أطيعوني في هذا اليوم، وأعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت مثله قط، وما دريت ما أرد عليه.

#### الموضع الخامس:

يقول الحق سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْفُ�ْقَانِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

أى أوحيناه بلغة العرب، أنزلناه قرآناً عربياً بلسان قومك، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لِيَسِّرَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].  
وقوله سبحانه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى واضحأ جلياً بيناً.

وقوله جل شأنه ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْفُرْقَانِ﴾ يعني مكة، وقيل لها أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أى يوم القيمة. والمعنى: أن القرآن الكريم أوحى إليك بلسان قومك، واضحاً بيناً، وذلك ليُنذروا به، وجاء وصفه (عربياً) أى بلغتهم، ولا حجة لديهم في عدم فهمه، لأنه من جنس لغتهم؛ التي أبدعوا فيها..

#### الموضع السادس:

يقول تعالى وعز ﴿حَمٌ﴾ ﴿وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعَقَّلُونَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

جاء نعت الكتاب بالمبين لأن الله تعالى بين فيه أحکامه وفرائضه و﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أى سميه ووصفناه (\*). قال مقاتل: لأن لسان أهل السماء عربي و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى بلغة العرب فصيحاً واضحاً.. وهو المقسم عليه؛ أنزلناه بلغة العرب، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب حكيم وبيان معجز.

(\*) والمعلم هنا معناه (بناء) أى بناء قرآناً عربياً وقيل: قلناء، وقيل: صبرناه. ومنه قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُ تِبْيَانًا﴾ [مرم: ٢٠] وقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمُلَاقِكَهُ الدِّينَ هُمْ عَادُ الرُّؤْحُنِ إِنَّا﴾ [الزخرف: ١٩] قال الزجاج: يجعل هنا يعني التسمية: القول والحكم على الشيء، يجعل يعني الخلط. ومنه ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ النَّاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ [الأنبياء: ٢٠] كما يرد يجعل يعني العطاوة ويُعني الأخذ.. الخ.  
(رجوع إلى لسان العرب: ١١٠ / ١١٢ - ١١٢ / ١١٠)

و﴿تَعْلَمُكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طرق البشر.

قال الإمام البيضاوي: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربياً وهو من البدائع البلاغية؛ لتناسب المقسم والمقسم عليه، تنبئها على أنه لاشيء أعلى منه، فيُقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بابلغ وجه وأدقه. (البيضاوى ٢٨٨/٣).

وهكذا عرضنا للمواضع الستة التي جاء فيها وصف القرآن الكريم بأنه عربي، في قوله تعالى- بنفس التركيب- (قرآنًا عربياً). أما وصف القرآن باللسان العربي، فقد ورد في ثلاثة مواضع؛ تناولها فيما يلى:

ثانياً، وصف القرآن الكريم باللسان العربي:

#### الموضع الأول:

يقول الحق سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مِنْ [١٠٣]﴾ [التحل: ١٠٣].

وتطرح الآية الكريمة سؤالاً مهماً: كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة التي هي أكمل من معانى كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علمه وينسبون إليه التعليم أعمى.. وقد اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلم، فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه (جبر) كان نصراانياً فأسلم وكانت يخوضون على الرسول الكريم ﷺ لمعرفيتهم أنه أعمى [إِنَّمَا يَعْلَمُ جَبْرُ] وهو أعمى.. ولكن: كيف يعلم جبر وهو أعمى هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنسان والجن، أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها.. وذكر النقاش: أن مولى جبر كان يضربه ويقول له: أنت تعلم محمداً، فيقول: لا والله بل هو يعلمنى ويهدينى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بمكة غلام أعمى رومي لبعض قريش، يقال له (بلعام)، وكان رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً ﷺ من جهة الأعاجم.

وهناك روايات عدة بخلاف ما ذكرناه، في سبب نزول هذه الآية، نورد بعضها:

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسنده ضعيف، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قبنا بمكة اسمه بلعام، وكان عجمي اللسان؛ فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ قال: قالوا إنما يعلم محمداً عبدة بن الحضرمي - وهو صاحب الكتب - فقال الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: كان النبي ﷺ يقرئ «غلاماً لبني المغيرة أعمى»، يقال له مقيس. فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾.

وأخرج آدم بن أبي إياس وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان، عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾ قال: قول قريش: إنما يعلم محمداً عبدة بن الحضرمي وهو صاحب كتب ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ يتكلم بالرومية ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن الضحاك في الآية قال: كانوا يقولون: إنما يعلمه سلمان الفارسي، وأنزل الله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: كان رسول الله ﷺ إذا آذاه أهل مكة، دخل على عبد لبني الحضرمي يقال له: أبويسر، كان نصراً وكان قد قرأ التوراة والإنجيل، فسأله وحده؛ فلما رأه المشركون يدخل عليه قالوا: يعلمه أبواليسر. قال الله: ﴿هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ولسان أبي اليسر أعجمى.

ويعقب على هذه الروايات الإمام القرطبي بقوله:  
«والكل محتمل، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعليمهم ما علمه الله، وكان ذلك بمكة».

وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست متناقضة، لأنه يجوز أن يكونوا أومئوا إلى هؤلاء جميعاً، وزعموا أنهم يعلمونه.

وقوله تعالى: ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ اللسان: مجاز مشهور عن التكلم، وقيل اللسان هنا أي جارحة الكلام، وهذا رأى ابن عطية، والأعم أنه أراد باللسان القرآن.

و﴿يُلْحِدُونَ﴾ من الإلحاد: الميل أى مال عن القصد، ويميل قولهم عن الاستقامة، والمعنى أى لسان الذي يميلون إليه، ويشيرون أنه أعجمى، والملحد الذي أمال مذهبة عن الأديان كلها.

و﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ غير البين، وعجم ضد الإبارة والإيضاح ويعنى الإبهام والإخفاء، والأعجم الذي لا يفصح، ومنه (بهيمة عجماء) لأنها لا توضح عن نفسها والعرب تسمى من لا يعرف لغتهم، ولا يتكلّم بكلامهم أعجمياً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي أفصح ما يكون من العربية فهذا القرآن غاية في الفصاحه، فكيف عليك من لسانه أعجمى أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ ومن أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبالغته وبيانه؟

والمراد أنه: ذو بيان وفصاحة، ولذا جاء وصف ( مبين ) بعد ( عربي ) الحال: أن علمهم بأعجمية هذا البشر ، الذى ادعوه وعربيه هذا القرآن كان ينفعى أن يمنعهم عن مثل تلك المقالة.. القرآن الكريم يكشف تناقض فكرهم، فهذا البشر الأعجمى لايفهم لغتهم جيدا، والقرآن عربى يفهمونه بأدنى تأمل فأين استقامة فكرهم؟.

ولذا يقول الكرماني: المعنى أنت أفسح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظماً ونثراً، وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله فكيف تسبونه إلى أعجمى الكن وهو كما ترى، دليل قوى على كمال عجزهم وسوء مذهبهم، كما يقول القائل:

فَدَعْهُمْ يَرَعِمُونَ الصِّحَّ لَيْلًا  
أَيْمَنِ النَّاطِرُونَ عَنِ الضِّيَاءِ؟

#### الموضع الثاني:

يقول الحق سبحانه ﴿تَنْزَلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ على قلبك لتكون من المتأذين ﴿بِلْسَانِ عَرَبِيِّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥-١٩٣].

أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربى الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحًا ظاهرًا قاطعاً للعذر، مقيمًا للحججة، دليلاً على المحاجة وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿بِلْسَانِ عَرَبِيِّ مُبِينٍ﴾ قال: بلسان قريش ولو كان غير عربى ما فهموه.. وبعاصد قول مجاهد الآيات التالية لهذه الآيات ﴿وَلَوْ تَرَنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فقرأه عليهم ما كانوا به مُؤْمِنِينَ [الشعراء: ١٩٩، ١٩٨] فلو أنزله الله أعجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية ولو نزل على بعض الأعجمين ل كانت العرب أشر الناس فيه، لا يفهمونه ولا يدركون ما هو... ولو حدث ونزل بغير العربية لكان لهم العذر فى عدم الهدایة، ولذا جاءت الآيات التالية قارعة قوية زاجرة لاتلمس لهم عذراً، ولا تقبل له ضراعة ﴿كَذَلِكَ سَلَكْتَهُ فِي قُلُوبِ

**الْمُسْرِفُونَ ٢٠١** لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٢٠٢ فَيَأْتِيهِمْ بَعْثَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٣ ﴿٢٠٣﴾ [الشعراء: ٢٠٢ - ٢٠٣].

### الموضع الثالث:

في قول الحق تقدست أسماؤه ﴿وَمِنْ قِلْهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنَذِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشَرِّي لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: ١٢].

يقرر الحق سبحانه أن القرآن الكريم مصدق ومواقف ومؤكدة لما قبله من الكتب، فهو مصدق للتوراة التي كانت هداية ورحمة، ثم أردف وصفه بأنه: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي فصيحاً بینا واضحًا بعد أن نعته الحق سبحانه بتصديقه للتوراة كتواصل زمانى ودينى وروحى، وإعلان لوحده الدين لله تعالى، وتكامل الأديان ذكر أنه جاء بأفضل لسان وأشرف لغة، ولذا يقول سفيان الثورى: ما نزل وحي إلا بالعربية ثم ترجم كل نبى لقومه، وللسان يوم القيمة بالسريانية، فمن دخل الجنة.. تكلم العربية (ابن كثير ٣٤٧/٣).

هذا فيما يتعلق بالمواضيع الثلاثة، التي ورد فيها وصف القرآن باللسان العربى، وذلك بتركيب واحد في موضعين ﴿لِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٍ﴾ وفي الموضوع الثالث بقوله تعالى: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وإذا كان اللسان العربى قد فُضِّلَ وخُلُدَ وشُرُفَ بتزول القرآن الكريم؛ فإنه الحق سبحانه يقرر أفضلية كونه عربياً وليس أعجمياً.. بعيداً عن نعته بالعربية.. أونعته اللسان بالعربى - في موضوع واحد فقط؛ نعرض له فيما يلى:

### ثالثاً، أفضلية كون القرآن عربياً وليس أعجمياً:

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَاتُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمَيًّا وَعَرَبِيًّا فَلَمْ يَهُو لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنٌ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

يشير تعالى إلى فصاحة القرآن وبلامته، وأحكامه في لفظه وآياته  
﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ تُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لُدْنٍ حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [هود: ۱۰].

ثم يقرر الحق سبحانه أنه لو أنزل بلغة العجم لقالوا على وجه التعتن  
والعناد لو لا فصلت آياته أعمى وعربي. أى لقالوا هلا أنزل مفصلا بلغة  
العرب، ولأنكرروا ذلك، فقالوا أعمى وعربي أى كيف يتزل كلام أعمى  
على مخاطب عربي لا يفهمه؟.

وإذا أعدنا قراءة الآية الكريمة لوجدنا أن قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَا قُرْآنًا  
أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم ، والضمير في لقالوا  
﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى بُيُّنت لنا ، وأوضحت بسان نفهه . . ورأى بعضهم أن  
المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعمى لإفهام العجم ، وبعضها عربيا ؛  
لإفهام العرب والمقصود من الجملة الشرطية ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ إبطال  
مقترحاتهم وهو كونه بلغة العجم ، باستلزم المذكور ، وهو فوات الغرض  
منه ، إذ لامعني لإنزاله أعمى على من لا يفهمه أو الدلاله على أنه  
لاینفكرون عن التعتن فإذا وجدوا الأعمية طلبوا أمرا آخر وهكذا . .

وقوله تعالى : ﴿أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾ بهمزتين الأولى للاستفهام والثانية  
همزة أعمى والاستفهام يتلوه مد ، والمراد كلام أعمى ورسول عربى ،  
وحاصله أنه لو أنزل كما يريدون لأنكرروا أيضا وقالوا مالك وللعمجة أوما لنا  
وللعمجة .

والذى نرتضيه فى قوله تعالى : ﴿وَعَرَبِيًّا﴾ والله تعالى أعلم أى المخاطب  
به وهو الرسول ﷺ ، وذهب بعضهم إلى أن المراد هو الرسول إليه من العرب ،  
ثم يكون رد الحق سبحانه عليهم ﴿قُلْ فُوْلَلَّدِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أَوْلَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ .

أى قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى وشفاء لصدره من الشكوك  
والريب ، أما الذين لا يفهمون ما فيه ، ولا يدركون عظمته فقد صمت آذانهم ،

وَعُمِّتْ قُلُوبِهِمْ؛ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ، وَهَذَا الَّذِي يَسْمَعُونَ وَيَتَعَامِلُونَ عَنِ آيَاتِهِ أَشْبَهُ فِي عَدْمِ فَهْمِهِمْ وَإِنْتَفَاعِهِمْ بِمَا دُعُوا لَهُ مِنْ يَنْدِي مِنْ مَسَافَةِ نَاثِيَّةٍ فَهُوَ يَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَلَا يَفْهَمُ تَفَاصِيلَهُ وَلَا مَعَانِيَهُ، أَوْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ.

#### وابعاً: وصف القرآن بالحكم العربي:

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا هُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقِعٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

جاءَ وَصْفُهُ هُنَّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «**حُكْمًا عَرَبِيًّا**» وَهُوَ وَصْفٌ لَمْ يَتَكَرَّرْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَالْمَعْنَى: كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحَكَّمًا عَرَبِيًّا؛ شَرْفَنَاكَ بِهِ؛ فَضْلَنَاكَ عَلَى مَنْ سَوَّاكَ بِهِذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِعِ الْجَلِيلِ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا هُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أَيْ وَكَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَأَنْكَرَهُ بَعْضُ الْأَحْزَابِ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا هُكْمًا عَرَبِيًّا، إِنَّمَا وَصْفُهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ عَرَبٌ، فَكَذَبَ مُشَرِّكُو مَكَّةَ، وَكَذَبَ الْعَرَبَ الْمُتَخَرِّبُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِهِذَا الْحُكْمِ.

وَقَيْلٌ: وَكَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى الرَّسُولِ بِلْغَاتِهِمْ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ حُكْمًا عَرَبِيًّا، أَيْ بِلْسَانِ الْعَرَبِ، وَبِرِيدِ الْحُكْمِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ. وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أَرَادَ بِالْحُكْمِ الْعَرَبِيِّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، لِأَنَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَيَحْكُمُ.

#### وَقْفَةٌ تَعْلَيْلِيَّةٌ مَعَ الْأَحْدَى عَشَرَةِ آيَةِ السَّابِقَةِ:

##### ١- الإعجاز القرآني في هذه الآيات:

التَّأْمَلُ فِي تَوقِيتِ وَمَكَانِ نَزُولِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ (الْأَحْدَى عَشَرَةِ آيَةً) الَّتِي جَاءَ فِيهَا لِفَظُ (عَرَبِيٌّ-عَرَبِيًّا) كَوْصِفٌ لِلْقُرْآنِ يَجِدُ أَمْرًا عَجِيْبًا، مُثِيرًا لِلْدَّهْشَةِ، وَدَاعِيًا لِلتَّأْمَلِ، وَمُحْفِزاً لِلتَّبَصُّرِ وَالْتَّعْقِلِ؛ حِيثُ وَرَدَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ جَمِيعَهَا

في سور مكية (أى نزلت قبل الهجرة) إلا موضعاً واحداً ورد في سورة مدنية (بعد الهجرة) وتفصيل ذلك فيما يلى:

آيات النحل والشعراء ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ مكية، وأية فصلت ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ مكية، وآيات سور يوسف وطه والزمر وفصلت والشورى والزخرف ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كلها مكية، وأية الاشقاف ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ مكية كذلك.

وهكذا نجد عشر آيات مكية، وصف فيها اللسان بأنه عربي وكذا القرآن، على نحو ما أوضحنا الآيات.

أما الآية الحادية عشرة فهي في سورة الرعد - وهي مدنية - وذلك في قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

فما دلالة ذلك؟

لا يخفى على القارئ أن السور المكية كانت تخاطب كفار مكة ولذا جاءت قوارع زاجرة، وحججاً قاطعة؛ تحطم وثنيتهم في العقيدة، وتدعوهם إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة، وتقيم الدليل عليهم.

كما تحداهم في فصاحتهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وجعل عاقبة هذا التحدي إمارة صدق النبي الأمى.

ولذا فقد جاء وصفه بأنه عربي ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ في سور مكية؛ تعجزاً لهم، وإقامة للحججة عليهم حيث تحداهم القرآن، والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، قد فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، ورغم ذلك فقد عجزوا عن تحديه أو معارضته، وقد أخبر القرآن حين تحداهم بأن عاقبتهم الإنفاق، فإن قوى الثقلين مجتمعة تنقطع دون ذلك ﴿لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانُوا بَعْضُهُمْ لِيَعْضُ طَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولذا كان موقفهم من القرآن موقف المبهور المتحير الذي لا يدرى إلا أنه أمام قوة فوق قوته، ونصلب طاقة معجزة. ولم يجدوا إلا أن يقولوا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سـ٤٣] ﴿فَلَمْ يَأْتُوا أَصْفَاتُ أَهْلَمٍ بِلَّا افْتَرَاهُ بِلَّا هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥٠] ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبُهَا فَهِيَ تُمْلِئُ عَلَيْهِ بَكْرَةً وَأَصْبَلًا﴾ [الفرقان:٥٠].

وهنا يتتأكد الإعجاز القرآني في كون الآيات التي وصفت لغته نزلت جميعها في مكة (باستثناء آية واحدة) وأن الآيات جاءت -في معظمها- قصيرة في نظم خطابي؛ يحرك العواطف، ويبني المشاعر، كما اتسمت بقوه المعارضة والرد والمناقشة، وهذا يتتسق مع طبيعة آيات السور المكية ومع طبيعة المخاطبين من أهل مكة.

أما آية الرعد المدنية ﴿كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ فلم يرد فيها لفظ (اللسان) وإنما ورد قوله سبحانه (حُكْمًا) وهذا يتتسق مع طبيعة الآيات المدنية، التي تناولت الأحكام والحدود والتشريع.

ولعلك تلحظ الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم في ألفاظه؛ التي لا ترد عينا وإنما بحكمة وقدر، وهذه الملفظة (حُكْمًا) تؤكد ذلك فأهل المدينة لم يكونوا موضعًا للتحدى اللغوي والإعجازي، كما أن الجماعة المؤمنة قد تكونت واستقررت، ودخلت في صراعات أخرى مع المنافقين وغيرهم.

ولعل هذه الإضافة للإعجاز اللغوي في القرآن الكريم تؤكد أن الملفظة القرآنية مقدرة ومحسوسة ونزلت بحكمة وقدرة، فما نزل من آيات وصف فيها القرآن بأنه عربي رأينا الآيات نزلت في مكة؛ وصفاً للقرآن وللسان العربين، والمراد منها واحد.

وأما الآية التي نزلت بالمدينة فقد ناسب مقامها ووافقت حال نزولها والمخاطبين؛ إذ جاءت معبرة عن أبرز سمات الآيات المدنية وهي كونها آيات أحكام، ولذا لا تتم من تكرار النظر وإدامة التأمل في قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾

في الآية المدنية أو «لساناً عَرَبِيًّا» و«لسانِ عَرَبِيِّ مُبِينٍ» و«قُرْآنًا عَرَبِيًّا» في الآيات المكية.

### أهو قرآن أم لسان أم حكم؟

يظن البعض أن ثم تناقضًا بين هذه الأوصاف الثلاثة في «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» وفي «لساناً عَرَبِيًّا»، و«لسانِ عَرَبِيِّ مُبِينٍ» وفي «حُكْمًا عَرَبِيًّا» ورغم أننا أشرنا للمعنى الثالث أثناء تطويقنا بالأيات الكريمة لكننا في حاجة لبيان لغوى قاطع في التفريق بين الكلمات الثلاث:

فما اللسان؟ «اللسان هو جارحة الكلام، والكلمة ترد بمعنى اللسان، وقال ابن بري: اللسان أى الرسالة والمقال، وقد يذكر على معنى الكلام، كما يذكر على معنى اللغة كلها، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4]. أى بلغة قومه، ومنه قول الشاعر:

أنتي لسان بني عامر أحاديثها بعد قول نكر

قال ابن سيده: اللسان أى اللغة، والرسالة، والكلام.

ارجع إلى (اللسان العرب / ١٣ - ٣٨٥ - ٣٨٦).

إلى غير ذلك من الشواهد التي تؤكد أن المقصود باللسان أى اللغة من منظور أوسع، ويعضد هذا الرأى أن الإمام البخارى رحمه الله؛ أفرد باباً في صحيحه تحت عنوان (نزل القرآن بلسان قريش والعرب قرآنًا عربيًّا بلسان عربيٍّ مبين) روى فيه حديثاً عن أنس بن مالك رضى الله قال أمر عثمان ابن عفان رهطاً من الصحابة (وَذَكَرَ أَسْمَاهُمْ) بنسخ المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أتتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن أُنزل بلسانهم ففعلوا. (البخارى / ٢٢٦).

وما الحكم؟ الحكم: العلم والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر حكم يحكم، والحكيم ذو الحكمة ومنه: إن من الشعر حكمة، وهو بمعنى الحكم. والحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

والمعنى أن الحكم - كما تقدم - يعني العلم والفقه مأخوذه من قوله تعالى: ﴿وَاتَّيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِّيًّا﴾ [مريم: ١٢] أى علمًا وفقها، ومنه قوله: الصمت حكم وقليل فاعله.

والقرآن وصف بأنه الحكيم في قوله ﷺ في صفة القرآن: «وهو الذكر الحكيم» أى الحاكم لكم وعليكم، وهو المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب.

وقال الأزهري: الحكم أى القضاء بالعدل، وأحكم الأمر أى أتقنه، وأحکمت الشيء فاستحکم: صار محکماً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَرْ كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١٠] أى أحکمت بالأمر والنھی والحلال والحرام، ثم فُصلت بال وعد والوعید. وأحکمت وفُصلت بجمع ما يحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وثبات نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام.

وحكم الشيء وأحکمه: أى منه من الفساد، وحكم الرجل يحکم حکماً إذا بلغ النهاية في معناه مدحًا لازماً، وقال مرقش:

يأتي الشباب الأقورين ولا تغط أحوالك أن يقال حَكْم  
أى بلغ النهاية في معناه. (لسان العرب / ١٤٠ - ١٤٣).

وأما القرآن فلا خلاف على تعريفه وعلى مصادر اشتقاقة لغة ودلالة.

ولستا نجد تناقضًا بين الكلمات الثلاث، فاللسان تعبر عن اللغة بكليتها عقلاً ولفظاً، أى كعمليات وكأداء، فالقرآن بلسان عربي من حيث لغته ومعانيه واشتقاقاته ولفظه.. وهو حكم عربي أى قاضياً فاصلاً محبطاً ومفصلاً، وبلغ النهاية في كل شيء. وهو جامع المعرفة والفقه والقضاء والشرع والعبادات فالقرآن هو اللسان لغة وعقلاً، وهو الحكم فاصلاً وقضاء ومعرفة وشريعة فلين التناقض إذن؟

## ٢- التركيب اللغوي في الآيات الإحدى عشرة:

تبرز عدة ملاحظات مهمة عندما نعيد التأمل في الآيات السابقة، حيث يتضح لنا ما يلى :

عبر عن كيفية نزول القرآن الكريم في هذه الآيات في صور أربع هي:  
التنزيل - الوحي - الجعل - ضرب المثل.

أما التنزيل فذلك في سورة يوسف والرعد وطه في قوله تعالى  
﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ - بالفعل المتعدي - وكذا في سوري فصلت ﴿تنزيل﴾ وفي سورة  
الشعراء ﴿نزل﴾ .

وأما الوحي ففي موضع واحد في الشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾  
[الشورى: ٢].

وأما الجعل يعني الوصف والتقدير والتسمية والإرادة والاختيار فقد جاء في  
موضعين في قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فَعَلْتَ أَيَّاهُ أَعْجَمِيًّا  
وَعَرَبِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤]. وفي قوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٠] . أي  
قدرناه واحتمنا له بذلك.

وأما ضرب المثل فقد جاء في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ  
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴽالنَّٰٰتِ﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٨، ٢٧].

وقد أردنا إثبات كيفية النزول المشار إليها في الآيات، تأكيداً للتنوع الأسلوبى  
والشراء اللغوى في القرآن الكريم، وتأكيداً لتبيان اختيار الله، لكونه عربياً، ولذا كان  
التنزيل في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ والوحي في ﴿أَوْحَيْنَا﴾ والجعل في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وضرب المثل  
في ﴿ضَرَبْنَا﴾ وهي كل مدارج مؤدية لمعنى عظيم، هو نزوله على قلبه بِسْمِ اللَّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ،  
ودعوتهم للقيام بما فيه والتعقل والابتداء والعلم والتقوى .

كما تبرز ملاحظات أخرى بشأن التركيب اللغوى للآيات، تقدمها فيما يلى:  
عبر عن القرآن الكريم بأنه ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ في موضعين و﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾

في موضع واحد و﴿قُرْأَنًا عَرَبِيًّا﴾ في ستة مواضع، و﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ في موضع واحد و﴿أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾ في موضع واحد. مع ملاحظة اتحاد البنية القرآنية في ﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ ﴿قُرْأَنًا عَرَبِيًّا﴾ مع اختلاف الموضع.  
ويلاحظ الربط بين اللسان العربي وبين الإبارة فلم يقل الحق سبحانه ﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ فقط ولكنه أردف بقوله ﴿مُبِينٌ﴾.

تأكيداً جللاه ووضوحاً وسلامته.

كما نلاحظ أن ﴿قُرْأَنًا عَرَبِيًّا﴾ جاءت هكذا في خمسة مواضع، وفي الموضع السادس أضيف وصف جديد ﴿غَيْرُ ذِي عِوْجٍ﴾ في سورة الزمر، وهذا يتسم مع وصفه بأنه (مبين) في الموصعين السابقيين.  
وُصفت آياته بأنها مفصلة واضحة لا لبس فيها في قوله تعالى: ﴿فَصَلَّتْ آيَاتُهُ﴾ متقدماً على قوله ﴿قُرْأَنًا عَرَبِيًّا﴾ في سورة فصلت.  
كما وُصف بأنه ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما تقدم من الكتب متقدماً على قوله ﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ في سورة الأحقاف.

يلاحظ أن كلمة (عربياً) وردت ثمان مرات؛ كلها منصوبة في ستة مواضع ﴿قُرْأَنًا عَرَبِيًّا﴾ وفي موضع واحد ﴿بِلْسَانٍ عَرَبِيًّا﴾ وفي موضع واحد ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

وهناك عدة آراء في إعراب (قرآن - لساناً - حكماً) والذى نرتضيه منها أنها تُعرب حالاً، و (عربياً) صفة. وهذا ما ارتضاه القرطبي والألوسى وغيرهما.

### ٣- ختام الآيات الكريمة وعلاقتها بمضمونها:

في كل مرة يتأكد الإعجاز القرآني، على اختلاف أوجهه، وهنا نرصد ملمحاً إعجازياً فريداً في ختام الآيات؛ التي جاء فيها نعم القرآن الكريم بالعربية في الموضع المذكورة.

حيث جاء ختام الآيات متسقًا مع محتواها ومضمونها، وذلك إجابة على سؤال مبهم في الذهن: ولماذا أنزل القرآن عربياً؟ نجد الرد في الآيات نفسها.. حيث المحصلة المراده من ذلك وهي على النحو التالي: التعلم - التقوى - العلم - الإنذار. وهذا ما نوضحه فيما يلى:

جاء قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في عجز آياتي يوسف والزخرف وفيها وصف القرآن بقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى لكي يتحقق لكم التعلم والتذكرة والتبصر والفهم والتتفقه والتأمل والاعتبار بما فيه.

جاء قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَقْعُدُونَ﴾ في عجز آياتي طه والزمر وفيهما وصف القرآن كذلك بقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى لكي يتحقق لكم الكمال النفسي بالتقوى والخشية وترك المعاصي.

جاء قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ في عجز آياته فصلت ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى أنه نزل بهذه الكيفية ليعرف هذا البيان وهذا الوضوح للعلماء الراسخون.

وردت صيغتان تفيدان الإنذار في عجز آياتي الشوري والأحقاف وذلك في قوله سبحانه: ﴿تَعَذَّرَ أَمَّا الْفُرْقَى﴾ و﴿لَيَنْدِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشَرِّى لِلْمُحْسِنِينَ﴾. ووردت صيغة واحدة تفيد الإنذار متقدمة على قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٍ﴾ في موضع الشعراء في قوله سبحانه ﴿لِتَكُونُ مِنَ الْمُذَدِّرِينَ﴾ والمراد أنه نزل بصورته هذه ليتحقق الإنذار لهم، والزجر لهم، لأهل مكة ومن حولها، وللذين كفروا وظلموا، كما أنه يشرى للمحسنين الصالحين..

#### ٤- سياق الآيات الكريمة:

يلاحظ أن وصف القرآن واللسان بالعربية جاء في صور ثلاث:

أ- إما استكمالاً لصفات سابقة، حيث يمتد السياق، وذلك مثل مواضع

سورة النحل، حيث إن قوله تعالى ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ جاء في سياق حديث الحق سبحانه عن آداب تلاوة القرآن الكريم «فَإِذَا قَرأتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِدْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرُّجِيمِ» [النحل : ٩٨] والشئ نفسه في سورة فصلت حيث جاء قوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَاللَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقُرْآنٌ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» في سياق الحديث عن القرآن الكريم كذلك في «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءُهُمْ وَإِنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ» وكذا في الشعراء حيث يستمر السياق في وصف آيات الذكر الحكيم بداية من قوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يستمر السياق في قوله تعالى ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ كما يعتد بعد ذلك في وصف طريقة تلقיהם للقرآن الكريم، وصدودهم عنه.

فالسياق والوصف مستمران متداشان في الموضع الثلاثة السابقة، وكلها مرتبطة بوصف القرآن الكريم، ثم يرد وصفه بكونه عربياً كأحد أوصافه المتميزة.

بـ- كما يأتي توضيحاً لوصف سابق، في سياق الحديث عن القرآن الكريم وذلك في مواضع افتتاح سورة يوسف «أَتْرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» وسورة فصلت ﴿حَمٌ﴾ تنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿كَتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وسورة الزخرف ﴿حَمٌ﴾ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

جـ- السياق يستقل بالآيات التي تحدث عن كون القرآن عربياً في مواضع طه «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» والشورى «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» والأحقاف «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً» إذ يلاحظ أن السياق لا يعتد قبلها أو بعدها في وصف آيات الذكر الحكيم، وإنما نجده مستقلًا في معناه ولفظه .

##### ٥- القرآن العربي:

ونخلص إلى سؤال مهم: هل ظُمَّ حاجة لإبراز عربية القرآن وعروبة لسانه وهذا ما لا يخفى على أحد؟

يؤكد الحق سبحانه على حقيقة كونه نزل بلسان عربي، قرآنًا عربياً وذلك لما يلى:

بلغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ؛ من حصول كيفيات في نظمها مقدرة معانى دقيقة، كما أن ما أبدعه القرآن من أفانيين التصرف في نظم الكلام، لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة، وهنا نلمح أن إعجازه من هاتين الناحيتين - على تعداد نواحي إعجازه - متوجه إلى العرب خاصة، إذا هو معجز لفصائحهم وخطبائهم وشعراهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه من معارضته هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميهم، ثم هو بعد ذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر، الذي بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغًا، لا يستطيع إنكاره لمعاصريه، بتواتر الأخبار ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ.

فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي.

ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم، ومارس بلغة كلامهم وأدابهم<sup>(\*)</sup>.

وإذا كان القرآن الكريم قد أعجز العرب بسحر بيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه وشرائعه وعلومه ومبانيه فضلاً عن لغته وبيانه.

والقرآن وحاله كذلك من بلاغة وروعة قول ونغمة بيان وحسن نظم ودقة

(\*) أحمد جمال العمري: مفهوم الإعجاز القرآني، القاهرة، دار المعرف، ١٩٨٤ ، ص ٢٣١ .

أسلوب كان طبيعياً أن يتحدى العرب، والذين هم قوم بلاغة وفصاحة وذلك ببلاغة القرآن التي تحدتهم وأعجزتهم، فقد نزل على قلب النبي الأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطرق أسماع قريش طرقاً شديداً، وهز عرشهم الأدبي والفكري هزاً عنيفاً، وقلب موازيتهم البيانية والبلاغية، وخطاب عقولهم وقلوبهم بأرقى ما يمكن أن يخاطب به بشر ولذا تباينت ردودهم وانختلفت آراؤهم نحوه؛ ما بين قولهم إن الرسول الكريم ساحر أو شاعر أو أن القرآن الكريم أساطير الأولين.

ولذا كان طبيعياً أن يذكرون القرآن الكريم أنه نزل بلغتهم وب Lansanem، وأنه ليس أعجمياً، فيستعصي عليهم فهمه، وليس به عوج، فيزيغون عن متابعته، أو يخفى عليهم إدراك فحواه... وأن نزوله كذلك هو حجة عليهم، ولا عذر لهم عند الله... لأنه:

قَدْ تَنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ      وَيَنْكِرُ الْفَمُ طَعْنَمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ





### **المبحث الثالث: اللغة الحرية في الحديث النبوي الشريف ونماذج لغته صلى الله عليه وسلم**

نعرض هنا بعض مقالات الرسول الكريم ﷺ بشأن اللغة عامه، وبشأن اللغة العربية خاصة، وذلك من خلال رصتنا لبعض أقواله ﷺ، في ذكر أول من تكلم اللغة العربية، وفي كون العربية لغة أهل الجنة، ثم نعرض لإيماء اللغة إليه ﷺ، وتأكيد فصاحته ومصادرها من خلال أقواله ﷺ، ويلي ذلك رصتنا للدعوه ﷺ للغة العربية، ونقدم سمات لغته ﷺ، ثم نعرض لنماذج من قوة لغته ﷺ، وهذا ما نفصله فيما يلى.

#### **أولاً: أول من تكلم العربية:**

قال محمد بن سلام الجمحي في كتاب «طبقات الشعراء»: قال يونس ابن حبيب: أول من تكلم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم قال محمد بن سلام: أخبرني مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن علي يقول: قال ابن سلام: لا أدرى رقمه ألا، وأظنه قد رفعه - أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل عليه السلام. (طبقات الشعراء: ٩، ١٠).

وآخر الحاكم في المستدرك، وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سفيان الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر: أن رسول الله ﷺ تلا: «فَرَآنَا عَرَبًا لَّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ثم قال: **أَلْهِمْ إِسْمَاعِيلَ هَذَا اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْهَامَّا**.

وقال الشيرازي في كتاب الألقاب: أخبرنا أحمد بن سعيد المدائني: أئبنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماسى، حدثنا محمد بن جابر، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن السكري قال: حدثى الأثر عن أبي عبيدة، حدثنا مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبي ﷺ قال: «أول من فتح لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة»

فقال له يومنس: صدقت يا أبا سيار، وهكذا حدثني به أبو جزى. هذه طريقة موصولة للحديث السابق من طريق الجمحي. (المزهر / ٣٤ / ١)  
والهام إسماعيل اللغة العربية هو إعلاء لشأنها، وتفضيل لها ونجد الزمخشري يفتح كتابه (الفائق في غريب الحديث) بتأكيد الحقيقة السابقة بقوله «الحمد لله الذي فتق لسان الذبيح -إسماعيل- بالعربية البينة، والخطاب الفصيح، وتولاه بأثره التقدم في النطق بالعربية التي هي أفعى اللغات». (الفائق / ١ / ١١)

ويعقب أحد العلماء المعاصرین على ذلك بقوله: «ولا يخفى أن فتق لسان نبی من الأنبياء بلغة ما، وإلهامه إياها فيه من التفضيل للغة يقدر ما للنبي من الفضل على غير النبي، بالإضافة إلى أنه يؤخذ منه أن تلك اللغة من عند الله»<sup>(١)</sup>.

**يؤخذ من الأحاديث المتقدمة من العرض السالف مايلي:**

- ١- أن إسماعيل عليه السلام هو أول من فتق العربية البينة، وأن العربية منسوبة إليه.
- ٢- أن حديث إسماعيل عليه السلام بها كان إلهاماً من الله تعالى وإرادة واختياراً وحكمـاً... وكان كلامه بها تأكيداً لذلك.
- ٣- أن إلهام إسماعيل بها هو إعلاء لشأنها، وتفضيل لها وتأكيد للعلم الأزلـي لله سبحانه في إنزال القرآن الكريم على نبـي كريم من نسل إسماعيل عليه السلام باللغة نفسها على نحو ما أوضـحنا..
- ٤- وصف الرسولُ الكريم اللغةَ التي علمها إسماعيل في رواية بأنها «أول من فتق لسانه بالعربية البينة»<sup>(٢)</sup>.. ووصفـت كذلك في حديث آخر بأنها «أول

<sup>(١)</sup> محمد حسن جبل: خصائص اللغة العربية (تفصيل، وتحقيق)، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، ص ٢٨.

<sup>(٢)</sup> كنز العمال: ١١ / ٤٩٠.

من فرق لسانه بالعربية المتنية<sup>(١)</sup>. وكلا الوصفين الإبانة (الإيصال) والثانية (القوة) مما قرره علماء اللغة بعد ذلك قدتهم وحديثهم ومن يعرض لخصائص اللغة العربية يجد إبانتها و ممتازتها، مما نطقت في أي الذكر الحكيم ..

٥- يقصد ما تقدم قول ابن هشام في (السيرة النبوية): «فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقططان. وبعض أهل اليمن، يقول: قحطان من ولد إسماعيل ويقولون: إسماعيل أبو العرب كلها»<sup>(٢)</sup>.

#### ثانياً: العربية لغة أهل الجنة:

أخرج ابن عساكر في التاريخ، عن ابن عباس، أن آدم عليه السلام كان **لئته في الجنة العربية**، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية.

قال عبد الملك بن حبيب: كان اللسانُ الأولُ الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، إلى أن بَعْدَ العهد وطال، حُرُفَ وصار سُريانيَا، وهو منسوب إلى أرض سُورِيَّ<sup>(\*)</sup> أو سوريانه، وهي أرضُ الجزيرَة، بها كان عليه السلام وقومه قبل الغَرَقَ<sup>(٣)</sup>.

وثم حديث يروى عن ابن عباس يقول فيه ﷺ «أحبوا العرب ثلاثة لأنى عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»<sup>(٤)</sup>.

ومهما قيل من روایات في علو منزلة اللغة العربية، وكونها لسان أهل الجنة فإن المقطوع به أن تنزل القرآن الكريم، وهو خاتم الكتب السماوية بهذا اللسان

(١) المزفر: ١ / ٣٤.

(٢) ابن هشام: ١ / ٧.

(\*) في القاموس: سورى كطوبى، موضع بالعراق، وهو من بلد السريانيين.

(٣) المزفر ١ / ٣.

(٤) انظر الجامع الكبير: ١ / ٢٣ . (والحدث حوله جدل في صحته، حيث رفضه الذهبى وابن الجوزى).

العربي المبين المعجز هو منقبة لاتدانيها منقبة في مجال اللغات، وهي كفيلة بنسبة كل فضل إلى هذه اللغة الشريفة (كما وصفها ابن جنی في الخصائص).

**ثالثاً: إيجاء اللغة إليه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وتأكيد فصاحته:**

جاء في الجامع الكبير للسيوطى أن ابن عساكر أخرج عن أنس أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يارسول الله مالك أفصحتنا لساناً وأبینا بياناً؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن العربية اندرست فجامنت بها جبريل غصة طرية كما شق على لسان إسماعيل عليه السلام»<sup>(١)</sup>.

وروى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «جامنني جبريل فلقتني لغة إسماعيل»<sup>(٢)</sup> (وفقاً رواية الديلمى عن ابن عمر رضى الله عنه).

وقال أبو أحمد الغطريف في (كشف الظنون): حدثنا أبو بكر بن محمد ابن أبي شيبة ببغداد: أخبرنا أبو الفضل حاتم بن الليث الجوهري، حدثنا حماد بن أبي حمزة الشترى، حدثنا على بن الحسين بن واقد، ثنا أبو عبد الله بن بُرِيَّة عن أبيه، عن عمر أَطْهَرْنَا؟ قال: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجأة بها جبريل عليه السلام فحفظَّيْها، فحفظَّتْهَا» أخرجه ابن عساكر في تاريخه.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق يونس محمد بن إبراهيم بن الحرف التيمي، عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم دجنه<sup>(٣)</sup>: «كيف ترون بواسقها»<sup>(٤)</sup>؟ قالوا: ما أحسَّها وأشدَّ تراكمها! قال: كيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسَّها وأشدَّ تراكمها! قال: كيف ترون جوانها. قالوا: ما أحسَّه وأشدَّ سواده. قال: كيف ترون رحاحها استدارت؟ قالوا: نعم ما

(١) الجامع الكبير ١ / ٢٠٧ ، وكتب العمال ١١ / ٤٩٠ .

(٢) كتب العمال ١١ / ٤٩٠ .

(٣) الدجن : إلياس القيم السماء.

(٤) الباسقة : السحابة البيضاء الصافية.

أحسنها وأشدّ استدارتها! قال: كيف ترون بِرُّهَا؟ أخفِّا أم وميضاً أم يشق شقاً؟ قالوا: بل يشق شقاً. فقال: الحياة<sup>(١)</sup> فقال رجل: يا رسول الله؛ ما أفصحك! ما رأينا الذي هو أعرَب<sup>(٢)</sup> منك. قال: حقٌّ لي، فَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى بَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ».

وأنخرج الديلمی فى مسند الفردوس عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثُلتْ لِي أُمِّتِي فِي الْمَاءِ وَالظِّنْنِ وَعَلِمْتُ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا كَمَا عُلِمَ آدُمُ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا».

#### يؤخذ من الأحاديث السابقة مايلي:

- ١ - أنه ﷺ وقد نزل القرآن الكريم على قلبه بلسان عربي مبين، فإنه بالضرورة قد وعي هذه اللغة وأسرارها، فإذا كان الرسول الكريم أ米أً -كما أكد القرآن الكريم<sup>(٤)</sup> - فإننا لا نجد كثير صعوبة في القول بأنه علمها بالوحى -عليه السلام-.
- ٢ - القول بوحى اللغة إليه ﷺ هو تأكيد لوعيه باللغة، وإدراكه لأسرارها، ولأهمية إحساسه بالنص القرآني من حيث الدلالة ولعائشته له ﷺ، ولإدراكه تعبيراته اللطيفة، والإيضاح بعض المعاني والأسرار لبعض الآيات الكريمة، كما هو واضح في كتب التفسير.
- ٣ - يستدل من الأحاديث أن إحياء مكان من اللغة بعد إسماعيل عليه السلام، وأن إيحائها إليه ﷺ رعاية من الله القدير، وإعلاء لها، وتفضيل لها عما عداها من اللغات.

(١) الحياة: مقصور الخصب والمطر، ويمد.

(٢) عرب بالضم إذا لم يلحظ، وعرب لسانه عروبة إذا كان عربياً فصيحاً.

(٤) وذلك في قوله جل شأنه ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأَعْلَمُ﴾ (الأعراف: ١٨٧). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا بَالَّهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَعْلَمُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف: ١٨٨). وأميأته ﷺ داعيها وحكمتها وأهميتها ما لا يخفى على ذي لب.

٤- فصاحته ﷺ مستمدة من كتاب الله تعالى ومن الوحي، وهذا المعنى مأخوذ من قوله ﷺ -عندما سُئل عن عروبه واستقامة لغته وفصاحتها- «حقّ لي، فلما أتني القرآن على بلسان عربي مبين» كما أن الوحي عليه السلام -كان عوناً له ﷺ على حفظها وتعلمها ودراستها، وهذا المعنى مأخوذ من قوله ﷺ: «فَجَاءَ بِهَا جِرْجَيلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَفَظَنِي هَا فَحَفَظَتُهَا».

#### رابعاً، الرسول الكريم ﷺ ودعوه للعربية:

ثم توجيهات صريحة منه ﷺ ومن كبار صحابته لدراسة العربية، وفقه علومها، وهذا ما نلمسه في قوله ﷺ «أعربيوا القرآن، والتمسوا غرائبه»<sup>(١)</sup> مما يحمل في معانيه: القراءة بالضبط وبالحركات الصحيحة كما يستدل منه -والله أعلى وأعلم- على السعي لفهم معانيه، والبحث عن تفسير غريبه. ولعلك تجد توجيهًا آخر جليًا في إطار أدب النبي الكريم صلوات الله عليه وسلم، عندما سمع رجلاً يلحن فقال: «أوشدوا أحكام» وأضيف في رواية أخرى (فإنه قد ضل) أو (فقد ضل).

ولايختفي عليه - إن صحت الإضافة السابقة- أن الضلال هو خروج عن الحق، وأن خطأ في اللغة بالتالي هو ضلال، يستوجب معه إرشاد الضال، وذلك بالتصويب له، وهدايته للصواب اللغوي ..

وينبغي أن نؤكد هنا على التوجيه المعاصر للمسلم هذه الأيام من حديث المقدم ﷺ والذي ثبّد فيه دعوة قوية لعدم اللحن وعدم الخطأ في اللغة، والعمل على التحدث بها والالتزام بها؛ تحبباً للضلال الذي أشير إليه ..

وليس أدل على أهمية الالتزام بالعربة في التحدث، وعلى مراعاة قواعد اللغة العربية في أساليب الخطاب المختلفة، من حديث مروي عنه ﷺ؛ مشيراً لأهمية مراعاة قواعد اللغة في أمور العبادة وذلك في قوله «إذن الله لا يسمع

(١) أخرجه البيهقي وغيره (الإنegan)، ١٧٥.

**دُعَاءً مَلْهُوْنَا** ولا يخفي عليك أن الدعاء مخ العبادة، أو هو العبادة كما أشارت الأحاديث النبوية لذلك.

وهذا الحديث -إن صح- يؤكد أمراً خطيراً جداً في قبول الدعاء -من المسلم المثقف الدارس- بشرط أن يخلو دعاوه من الأخطاء اللغوية، ومن اللحن في لغة الدعاء والطلب الذي يُفضي إلى إجابة وقبول من الله سبحانه وتعالى؛ في ضوء استقامة لغته وخلوه من اللحن.

وهو **بِكَلْمَةٍ** وقد أوتى **(جوامِعُ الْكَلْمَه)**<sup>(\*)</sup> كان قدوة عظيمة في مجال التحدث بالفصحي من العربية، وبمعرفة لغات العرب؛ حتى ليخاطب القبائل بهيجاتها، وبمعرفته للغتها ولغزائها، حتى يقول له أصحابه **(مَا رَأَيْنَا أَذْنِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ).**

وتاكيداً لفصاحته **بِكَلْمَه** نجده يقول عن نفسه **بِكَلْمَه** **«أَنَا أَفْصَحُ مِنْ نَطَقَ** **بِالضَّادِ يَدْ أَنِي مِنْ قُرْيَشٍ وَأَنِي نَشَّاتُ فِي بَنَى سَعْدٍ بَنَى بَكْرٌ»<sup>(۱)</sup>.**

فقد كان **بِكَلْمَه** قدوة في التمسك بمعالي اللغة، وحججة لاعتداد المعرفة اللغوية من عناصر الكمال الإنساني «فقد كان قوله جزاً وفصلاً، وكان أسلوبه راقياً فائقاً في البلاغة والتميز كما شهد بذلك أصحابه رسول الله عليهم من تأكيد فصاحته **بِكَلْمَه**، ونسوق له **بِكَلْمَه** حديثاً يؤكد أن تعلم العربية وحديثها يعد فخراً لكل من تعلمتها حيث يقول «يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب واحد وإن الدين واحد، وليس العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي».

(\*) أخبر رسول الله **بِكَلْمَه** عن نفسه بقوله «أوتيتُ جوامِعَ الْكَلْمَه» (ارجع إلى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ۳، ۴) ويتأكد كونه كذلك **بِكَلْمَه** من أقواله الموجزة الجامحة مثل «البر حسن الملئ، والإثم ما حاک في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» وفي قوله لم قال أوصني فقال له «لانقضب» وفي قوله «دع ما يربيك إلى مala يربيك» وقوله «إذا لم تسمح فاصنع ماشت»، وقوله لم استذكر شرائع الإسلام «لايزال لسانك رطب يذكر الله» وقوله لم سالم قولوا فضلاً في الإسلام «قل آمنت بالله ثم استقم».

(۱) ارجع للنهاية في غريب الحديث ج ۳ ، باب الفاء مع الصاد (فتح).

وإن صح هذا الحديث يتأكد لنا أهمية اللسان العربي وفضله وتعيذه،  
وضرورة الالتزام به، والحفظ عليه.

وندع الماحظ يحدثنا عن سمات لغته ﷺ فيقول: «كلام قل عدد حروفه، وكثير عدد معانيه، وجل عن الصنعة، وزنه عن التكلف كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

.... كيف وقد عاب التشدق، وجاذب أصحاب التعير، واستعمل المسوط في موضع البسط، والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغم عن الهجين السوقى؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام حُف بالعصمة، وشيد بالتاييد، ويسُر بالتوقيف، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغضاه بالقبول وجمع له بين المهابة والخلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغاثاته عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زالت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يذم الخطيب الطوال بالكلام القصار، ويكتس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتاج إلا بالصدق ولا يطلب الفلاح -الفوز- إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يطير ولا يجهل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبأ، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أوضح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ كثيراً»<sup>(١)</sup>.

(١) البيان والتبيين (٢/١٩ - ٢٠).

### نماذج لقوفه لغته صلى الله عليه وسلم:

قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: «ما جاءنا عن أحد من رواي الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ».

لذا نجد من أقواله ﷺ كلاماً لم يسبقه إليه عربي، ولم يدع لأحد ولا أدعاه أحد، مما صار مستعملاً، ومثلاً سائراً، ومن ذلك قوله ﷺ: «يأخيلاً الله أركب» وقوله: «مات حتفَ أنفه».

وقوله: «لاتنتطح فيء عنزان»، وقوله: «الآن حمى الوطيس»، وقوله: «لايسع المؤمن من جحر مرتين».

وقوله: «هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنِ، وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ» - وهو يضرب لن يضرم أذى، ويظهر صفاء..

ومن ذلك كلامه ﷺ حين ذكر الانتصار فقال: «أَمَا وَاللَّهِ عَلَيْكُمْ إِلَّا لَتَقْلُونَ عَنْ الدُّطْمَعِ، وَتَكْثُرُونَ عَنْ الدُّفْرَ» وقوله: «الناس كُلُّهُمْ سُوَاءٌ كَاسِنَانُ الْمُشْطِ» وقوله: «المرءُ كثيرون بِإِخْوَانِهِ» وقوله: «لَا خَيْرٌ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرِي لَكَ مِثْلَ مَاتَرِي لَهُ».

وقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُ دَمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمْتِهِمْ أَدَنَاهُمْ، وَيَرِدُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ مَنْ سَوَاهُمْ».

وقوله ﷺ: «الْيَدُ الْعَلِيَا خَيْرٌ مِّنَ الْيَدِ السَّفَلِيِّ وَابْدأْ بِمَنْ تَعْوَلُ». وقوله: «لَا تَجِنْ يَمْبَنُكَ عَلَى شَمَالِكَ»، وذكر الخيل فقال: «بَطْوَنُهَا كَنْزٌ، وَظُهُورُهَا حِرْزٌ» وقوله: «خَيْرُ الْمَالِ سِكَةٌ مَأْجُورَةٌ، وَفَرْسٌ مَأْمُورَةٌ» أى التخلص، والخيل كثير التجاج والنسل.

وقوله عن الخيل: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ»، وقوله: «نَهِيَتُكُمْ عَنْ عُقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ، وَمِنْ وَهَاتِ» وقوله: «مَاقْلَ وَكَنْتَ خَيْرٌ مِمَّا كُثِرَ وَأَلْهَى»، وقوله: «أَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ بَعْدَ مَشْوُرَةٍ»، وقوله: «مَا أَمْلَقَ تَاجِرٌ صَدُوقٌ»، وقوله: «رَحِيمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَقَنَمْ أَوْسَكَتْ فَسَلَمًا».

وقيل له: أَيُّ الْأَصْحَابِ أَفْضَلُ؟ قال: «الذِّي إِذَا ذُكِرْتَ أَعْنَاكَ، وَإِذَا نُسِيَتْ ذَكْرُكَ».

وقيل له: «أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟» فَقَالَ رَبِّهِ: «الْعَلَمَاءُ إِذَا قَسَدُوا».

ويحار المرء فيما يختار من أقواله عليه السلام، لأنها كلها نور، وكلها اتسم بقوة اللغة، وجزالة اللفظة، وحسن الإبانة، وقلة الحروف، وكثرة المعانى.

ولستنا نعجب من استقامة لغته عليه السلام، فقد استمدتها من نقاء فطرته، وحسن سليقه، وجودة قريحته، ولن يكون ذلك كله بشيء بجوار كتاب الله تعالى؛ الذى أکسبه بياناً وفصاحة وإيجازاً وقوه تعبير وحسن منطق ورجاحة وصحة وجودة لسان وحسن بيان .

وإنك لنجد امتداداً لذلك لدى أصحابه رضوان الله عنهم ولدى التابعين وتبعيهم؛ فقد اتسم كلامهم بالقوه والإيجاز فضلاً عن الصحة والإجاده، ووبيتنا لو أفردنا لها معالجه مستقلة هنا، لكن المقام لا يسمح بذلك، وهذا أمر يحتاج للدراسة مستقبلية إن شاء الله نبحث من خلالها عن مدى التواصل اللغوى والتأثير اللغوى لدى الصحابة والتبعين بأقواله عليه السلام، وذلك من خلال رصد أقوالهم . والله المستعان ومنه العون والهدایة .

\* \* \*



المبحث الرابع

فضل اللغة

العربية لدى

الأئمة والعلماء





## **المبحث الرابع: فضل اللغة العربية لدى الأئمة والعلماء**

نعرض في هذا الجزء لسياسة في كتب التراث، وتطويف بما ذكره الأئمة والعلماء في فضل اللغة العربية، وذلك من خلال التنقل في مساحة كبيرة من تاريخنا الزمني والعلمي؛ حيث نتناول واحداً من كل فترة زمنية، أو من كل مدرسة فكرية، أو من كل طائفة، أو من كل عصر؛ فالفاروق عمر يمثل عصر الخلفاء، والإمام الشافعى يمثل مدرسة الأئمة الأربعة، والجاحظ باعتباره أديباً، وابن جنى باعتباره لغوياً.. وهكذا؛ مما نسقه من آقوالهم؛ ثم تعقب على رأى كل عالم أو على رأى مجموعة من العلماء، وهذا ما نفصله فيما يلى ..

### **أولاً: عمر بن الخطاب وفضل تعلم اللغة العربية:**

لعل الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أكثر الصحابة حثاً على تعلم العربية والالتزام بها، حيث يرى أن تعلم العربية يُثبت القلوب، ويزيد المروءة حيث يقول: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبَةَ فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ الْقُلُوبَ، وَتَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ».

ولايختفى أن نظرته رضى الله عنه إلى اللغة العربية -لا على أنها لغة فحسب- ولكن على أساس تشريفى وقيمى وأخلاقى، وفي ضوء أنها لغة القرآن الكريم لا عجب من رأى الفاروق عمر رضى الله عنه.

وتثبت اللغة العربية للقلوب آت من الصلة الطبيعية العضوية بينها وبين هداية الله تعالى في قوله الحكيم؛ فكلما فقه المرء علم العربية، كان أقرب لفهم آيات الله تعالى وأوعى بمعانيها، وأذكرا بأحكامها وأوامرها، وأزجر عن نواهيها، وأدخل في دائرة نورها، وبذا يكون أنتى قلباً، وأحفظ سريرة، وأثبت فؤاداً.

وأما زيادة المروءة فهذا يتاتى من إكسابها وقاراً والتزاماً ورشداً للمتعلم لها، والعالم بها، والتحدث بالفصيح منها، والمتعرس بنطقها فى أحاديثه

اليومية.. ونجد أن الالتزام بها يفرض على صاحبها التزاماً دينياً، وقواماً خلقياً، وهداية واستقامة كما نجد استجابة وتفاعلًا من المتقين للكلام الجاد الملزم بالفصحي لأنه سيزن الكلام قبل النطق به؛ مجرياً الكلام على قواعد اللغة؛ فإذا استقام المعنى في داخله نطق به(\*)، وعندئذ فإنه بالأحرى سيفيل كلامه ويكثر صمته، ويزداد حبسه لسانه إلا عن أمر معروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى.. أى يحفظ لسانه، وهذه منزلة أخرى عظيمة، تحدثت عنها كتب الآداب الإسلامية، وكتب الأخلاقيات الإسلامية تحت عنوان (آفاق اللسان) و (فضل حفظ اللسان) و (أضرار الكلام) و (فصول الكلام)، ونوصي القارئ الكريم بالرجوع إليها.

ومادمنا بصدد حديثنا عن دعوة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتعلم العربية، وحرصه عليها وعلى كتابتها بصورة صحيحة، نذكر عنه أنه عندما كتب إليه كاتب أبي موسى الأشعري في رسالة «من أبي موسى» فكتب عمر إلى أبي موسى يقول له «قُنْجَ كَاتِبَكَ سَوْطًا وَأَخْرَ عَطَاهَ سَنَةً» (ارجع للتحويين/٦). وقد أصدر أمراً أن (لا يقرء القرآن إلا عالم باللغة).

#### **ثانياً: الإمام الشافعى وأوجه تفضيل اللغة العربية:**

أما الإمام محمد بن إدريس الشافعى -رحمه الله- فيقول في مؤلفه القسم (الرسالة) :

(\*) نذكر هنا طرفة عجيبة في هذا الصدد أوردها ابن الجوزي في كتابة (أخبار الحمقى والمغفلين) توكل من خلالها على أن الكلام يكون في عقل صاحبه قبل التلطف به؛ يصلحه ويقومه ثم ي يحدث في موضوعه المناسب؛ لاتأخر عن ذلك حتى لا يكون على هذا الأحق الذي ذكره ابن الجوزي: «كان يحسنان رجل يتعاطى التحوى وكان له ابن فقال لإيه: إذا أردت أن تتكلّمَ بشيءٍ فاعرضه على عقلك، وفكّر فيه بجهدك، حتى تقوّمه ثم أخرج الكلمة مُقوّمة، فيما هما جالسان في بعض الأيام في الشناء، والنار تقد، وقامت شارة في جهة خرز كانت على الأب وهو غافل والابن يراه فسكت ساعةً ممكراً، ثم قال يا أبا أريد أن أقول شيئاً فلما ذكره قال ابنه: ابن أبوه: ابن حقاً تكلم، قال: أراه حقاً، فقال ابنه أحرم، قال: وما هو، قال: شارة وقعت في جيشه، فنظر الأب إلى جيشه وقد احترق منها قطعة، فقال للابن لم تُعلمني سريراً؟ قال: فكرت فيه كما أمرتني، ثم قومت الكلام، وتكلمت فيه، فخلف أبوه بالطلاق أن لا يتكلّم بالتحوى أبداً. (ابن الجوزي/١٨٠).

«إِذَا كَانَتُ الْأَلْسُنَةُ مُخْتَلِفَةً بِمَا لَا يَفْهَمُهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، فَلَا يَبْدُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ تَبَعًا لِبَعْضٍ، وَأَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ فِي الْلِّسَانِ مِنْ لِسَانِهِ لِسَانَ النَّبِيِّ، وَلَا يَجُوزُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ أَهْلَ لِسَانِهِ أَتْبَاعًا لِأَهْلِ لِسَانِ غَيْرِ لِسَانِهِ فِي حِرْفٍ وَاحِدٍ».

وقد أشرنا لقوله في (أوائل الرسالة): لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظاً، ولأنّا نعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي. **ويرجع الشافعي تفضيل اللغة العربية إلى أن الله جعل بها ختم النبوة، وأنزل بها آخر كتبه.**

**ويُستدل من كلامه -رحمه الله-** على بعض أوجه تفضيل اللغة العربية في كونها لسان النبي ﷺ، وأن غيرها من اللغات تابع لها، فهي بالفضل والميزة الخيرية وكفاحاً من الفضل أنها لغة القرآن الكريم. كما رصد -رحمه الله- بعض خصائصها، المتمثلة في كونها أوسع اللغات وأكثرها ثراءً، وأنه لا يحيط بها علمًا إلا أنبياء الله.

**ويقول الشافعي أيضًا** «إن الله فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتتابع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له».

**ويقول فقهاء الحنفية** للعربية فضل على سائر الألسن، وهو لسان أهل الجنة من تعلمهها أو علمها غيره فهو مأجور».

وكلما ازداد الإنسان معرفة باللغة العربية كلما كان أقدر على فهم الإسلام، ولذلك خطوبت بها الأمم كما قال الشافعي رحمة الله.

وفي إطار حديثنا عن الآراء المتميزة للشافعي بشأن اللغة العربية نجد أن أستاذ الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة- (رحمه الله) يشدد القول على أهمية اللغة العربية وضرورتها لكل عالم ومتعلم، حيث يقول «لا أُوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً».

(ارجع للاقanon للسيوطى ٢/١٧٩).

### **ثالثاً، الباحظ، ومناط فضلها، وسر تفوقها:**

في كتابه الجامع لفنون البلاغة والفصاحة (البيان والتبيين) يقول أبو عثمان عمرو بن بحر الباحظ في شأن لغة إسماعيل عليه السلام:

«... ولا بد من أن نذكر فيه شأن إسماعيل عليه السلام، وانقلاب لغته بعد أربع عشرة سنة، وكيف نسي لغته التي ربها، وجرى على أعرافها، وكيف لفظ جميع حاجاته بالعربية على غير تلقين ولا ترتيب وحتى لم تدخله عجمة ولا لكتة ولا حبسة، ولا تعلق بلسانه شيء من تلك العادة...» (٣٨٣/١).

ثم قَصَّل ذلك في باب مستقل «القول في إبطاق الله عز وجل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام بالعربية المبنية على غير التلقين والتمرير، وعلى غير التدريب والتدريج، وكيف صار عربياً أعمى الآبدين...» (٢٩١/٣).

ثم يقول (في الهمام إسماعيل العربية): «فيجوز أن يكون الله تبارك وتعالى حين حول إسماعيل عربياً أن يكون كما حول طبع لسانه إلى لسانهم، وباعده عن لسان العجم، وأن يكون أيضاً حول سائر غرائزه، وسلخ سائر طبائعه؛ فنقولها كيف أحب، وركبها كيف شاء ثم فضلها بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودة، وللسان بين، بما لم يخصهم به، فكذلك يخصه من تلك الأخلاق، وتلك الأشكال بما يفتقهم ويروّقهم، فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب، وبما نقل طباعه ونقل إليه من طبائدهم، وبالزيادة التي أكرمه الله بها أشرف شرفاً وأكرم كرماً» (٢٩٢/٣).

وقال رحمة الله في موضع آخر، مشيداً بالعربية والعرب:  
«فالعرب أنطق، ولغتها أوسع، ولقطها أول، وأقسام تأليف كلاماً أكثر، والأمثال التي ضربت فيها أجود وأسير». (٣٨٤/٢).  
كما يشير إلى تأثير الجانب البلاغي في اللغة العربية؛ بقوله: «واليد يقع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأرببت كل لسان». (٤/٥٥ - ٥٦).

### **تعقيب على ماذكره الباحث:**

لأن الباحث من أبرز الأدباء المبدعين والكتاب المجيدين في تاريخنا الأدبي فإنك تلمس في آرائه جانب الدفاع عن العربية، وحبها، والانتماء لها وذكر فضلها وأفضالها، كما نلحظ جانب التعصب (بالمفهوم الإيجابي المثير) للغة العربية في كتاباته من خلال الرد على الشعوبية..

ولضيق المقام فلم نشا أن نورد المزيد من آرائه في ذلك، لكن حسينا أن نشير إلى ما يلى:

١- يؤكّد الباحث على الجانب التأصيلي التاريخي من خلال إلهام إسماعيل عليه السلام اللغة العربية، وتحوله إليها بعد أربع عشرة سنة، وهذا يتّأثر بتوفيق الله تعالى وإرادته و اختياره، خاصة أن هذا التحول لم يكن بالمررين أو التلقين أو التدريب.

٢- كما لم تدخل لسان إسماعيل عليه السلام لكنّه.. ولا حسنة، وزيد على ذلك أن تحوله للغة العربية صاحبه تحول في الطيّاع والغرائز - وفق رأى الباحث - ومزج ذلك كله في إطار أخلاق محمودة ولسان بين واضح، وكان هذا كله تشريفاً من الله وتكريماً.

٣- يسوق عدة أمثلة على تميّز العربية من: اتساع اللغة وكثرة الألفاظ، ووضوح دلالتها، ومن تنوع أساليب الكلام ومن وجود علم البديع، الذي به تفوقت وعلت وتميزت.

### **رابعاً، ابن جنٍ وحديثه عن اللغة العربية وأهلها:**

يقول أبوالفتح عثمان بن جنٍ في (*الخصائص*) عن مصدر اللغة العربية: ... «واعْلَمُ فِيمَا بَعْدَ، أَنْتَ عَلَى تَقْادِمِ الْوَقْتِ؛ دَائِمُ التَّنْقِيرِ وَالْبَحْثِ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَأَجِدُ الدَّوَاعِي وَالْحَوَالِجَ قَوْيَةً التَّجَاذِبَ لِي، مُخْتَلِفَةً جَهَاتِ التَّقْوِلِ عَلَى فَكْرِي، وَذَلِكَ أَنِّي إِذَا تَأْمَلْتَ حَالَ هَذِهِ الْلُّغَةِ الشَّرِيفَةِ، الْكَرِيمَةِ

**اللطيفة**، وجدت فيها من الحكمه والدقة، والإرهاf، والرقه، ما يملك على جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلّوة السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحّهم الله، ومنه ما حذّره على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وأماده، صحة ما وفّقوا لتقديمه منه. ولطفاً ما أسعدها به، وفُرِّق لهم عنه. وانضاف<sup>(\*)</sup> إلى ذلك وارد الأختبار المأثورة بأنّها من عند الله جل وعز، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنّها وحي. (الخصائص / ٤٧).

كما يقول ابن جنّى في (**المحتسب**): «فاقلبنا (الله) إلى كنز جنتك التي لم تخلق إلا ملن وسِع ظل رحمتك، واجعل أماناً هادياً من طاعتنا لك، وزكوات ما علمنا من وجوه حكمتك، وشرح صدورنا لمعرفته من لطائف مودعات لعنة نبيك التي فضلتها على سائر اللغات، وفرعت بها فيه سامي الدرجات». (المحتسب / ٣٢).

ثم يقول ابن جنّى في (**الخصائص**) في فضل علماء اللغة العربية: «والقوم الذين لأنشـك في أن الله - سبحانه وتعـدـست أسمـاؤهـ قد هداهم لهذا العلم الكـريمـ، وأـراـهـ وجهـ الحـكـمةـ في التـرحـيبـ والـتعـظـيمـ، وجـعلـهـ بـيرـكـاتـهـ، وـعـلـىـ أيـدـيـ طـاعـاتـهـ خـادـمـاـ لـلكـتابـ الـمـزـلـ، وكـلامـ نـبـيـ الرـسـلـ، وـعـوـنـاـ عـلـىـ فـهـمـهـماـ، وـعـرـفـةـ ماـ أـمـرـ بـهـ، أوـ نـهـيـ عـنـ الثـقـلـانـ مـنـهـماـ، إـلاـ بـعـدـ أـنـ يـنـاهـضـهـ إـتقـانـاـ، وـيـثـابـتـهـ عـرـفـانـاـ، وـلـاـ يـخـلـدـ إـلـىـ سـانـحـ خـاطـرـهـ، وـلـاـ إـلـىـ نـزـوـةـ مـنـ نـزـوـاتـ تـفـكـرـهـ. فـإـذـاـ هوـ حـذـرـاـ عـلـىـ هـذـاـ المـالـ، وـبـاشـرـ يـاتـعـامـ تـصـفـحـ أـحـنـاءـ الـحـالـ، أـمـضـيـ الرـأـيـ فـيـمـاـ يـرـيدـ اللـهـ مـنـهـ، غـيرـ مـعـازـ بـهـ، وـلـاـ غـاضـبـ مـنـ السـلـفـ رـحـمـهـمـ اللـهــ فـيـ شـئـ مـنـهـ. فـإـنـهـ إـذـاـ فـعـلـ ذـلـكـ سـُدـ رـأـيـهـ. شـيـعـ خـاطـرـهـ، وـكـانـ بـالـصـوـابـ مـثـنـةـ، وـمـنـ التـوـفـيقـ مـطـنـةـ». (الخصائص / ١٩٠).

#### تعليق على رأى ابن جنّى:

- ١- لعل أبرز مانجده في كلام ابن جنّى تجسيده للجانب النفسي الروحي لديه

\* انضاف إلى: وأضف إلى ذلك.

في اتجاهه نحو اللغة، وإصدار الحكم عليها، وعلى مصادرها حيث وصفها بالشريقة، وأن بها من الحكمة والدقة والرقى ما ملك عليه نفسه، وأنه باقتضائه خطى السابقين من علمائه يرى أن اللغة وهي من عند الله تعالى.

٢- كما يرى تميز العربية في تفضيل الله تعالى لها علىسائر اللغات وفي تشريف بعض القوم (من العلماء) وهدايتهم بدراستها وفهمها وخدمة كتابه الكريم، وكلام نبيه ﷺ، وهي عون لهم على فهمهما، ومعرفة أوامرهما ونواهيهما.

وهنا نجد ربطاً جيداً بين القرآن الكريم ولغة العربية لدى ابن حني، وتأكيداً على أهمية دراسة اللغة لفهم الدين من مصادره الصحيحة.

#### خامساً: الشعالي ورأي عظيم في خيرية اللغة العربية:

يقول أبو منصور الشعالي في مقدمة كتابه (فقه اللغة وأسرار العربية) عن فضل اللغة العربية وحفظ الله تعالى لها:

«من أحبَ اللَّهَ أحبَ رَسُولَهُ الْمَصْطَفِيَ ﷺ وَمَنْ أَحَبَ النَّبِيَ الْعَرَبِ أَحَبَّ الْعَرَبَ وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ أَحَبَّ الْلَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا تَزَلَّ أَفْضَلُ الْكِتَبِ؛ عَلَى أَفْضَلِ الْعِجْمِ وَالْعَرَبِ. وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ عُنِيَّ بِهَا وَثَابَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هُمَّتِهِ إِلَيْهَا. وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ، وَأَتَاهُ حَسْنَ سَرِيرَةِ فِيهِ. اعْتَقَدَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ خَيْرُ الرُّسُلِ، وَالْإِسْلَامُ خَيْرُ الْمُلْلَهُ. وَالْعَرَبُ خَيْرُ الْأَمَمِ وَالْعَرَبِيَّةُ خَيْرُ الْلِّغَاتِ وَالْأَلْسُنَةِ. وَالْإِقْبَالُ عَلَى تَفْهِمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ. إِذْ هِيَ أَدَاءُ الْعِلْمِ. وَمَفْتَاحُ التَّقْرُبِ فِي الدِّينِ. وَسَبِيلُ إِصْلَاحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، ثُمَّ هِيَ لِإِحْرَارِ الْفَضَائِلِ وَالْأَحْتَوَاءِ عَلَى الْمَرْوَةِ وَسَاتِرِ أَنْوَاعِ الْمَنَاقِبِ. كَالْيَنْبُوعُ لِلْمَاءِ. وَالْزَّنْدُ لِلنَّارِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِحْاطَةِ بِخَصَائِصِهَا وَالْوَقْوفُ عَلَى مَجَارِيهَا وَمَصَارِفِهَا. وَالْتَّبَرُ فِي جَلَلِهَا وَدَقَاقِهَا إِلَّا قَوَّةُ الْيَقِينِ فِي مَعْرِفَةِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ. وَزِيادةُ الْبَصِيرَةِ فِي إِثْبَاتِ النَّبُوَةِ الَّتِي هُوَ عَمَدةُ الْإِيمَانِ لِكُفَّى».

بها فضلاً يحسن أثره. ويطيب في الدارين ثُمره فكيف وأيسر ما خصها الله عز وجل. من ضرُوبِ الممادح ما يكل أقلام الكتبة. ويتعجب أنامل الحسبة. ولما شرفها الله عز اسمه وعظمها. ورفعَ نظرِها وكرمها. وأوحى بها إلى خير خلقه. وجعلها لسان أمينه على وحيه. وأسلوب خلفائه في أرضه. وأراد بقاءها ودوامها حتى تكون في هذه العاجلة خير عباده. وفي تلك الآجالة لساكتي دار ثوابه. فقضى لها حفظة وخزنة من خواص الناس وأعian الفضل وأنجُم الأرض فنسوا في خدمتها الشهوات وجبوا الفلووات. ونادموا لاقنائهما الدفاتر. وسامروا القماطر والمحابر. وكدوا في حصر لغاتها طباعهم وأسهروا في تقييد شواردها أجنانهم. وأجالوا في نظم قلائدما أفكارَهم. وأنفقوا على تخليد كتبها أعمارهم. ففضلت الفائدة. وعمت المصلحة وتوفرت العائدة. وكلما بدأ معارفها تتذكر. أو كادت عالمها تستتر. أو عرض لها ما يشبه الفترة رد الله تعالى عليها الكرة. فأهابَ ريحها وتفقد سوقها. بفرد من أفراد الدهر أديب. ذي صدر رحيب. وعزيمة راتبة. ودرية صافية. ونفس سامية. وهمة عالية. يُحبُّ الأدب ويتussبُّ للعربية فيجمع شملها، ويكرم أهلها ويحرك الخواطر الساكتة لإعادة روتقها. ويستثير المحسن الكامنة في صدور المتعلمين بها».

#### تعليق على رأى الشعالي:

- ١- يربط الشعالي بين محبة الله وبين محبة رسوله الكريم ﷺ ومحبة العرب، وبين محبة العرب ومحبة لغتهم؛ التي شرفت بنزول أعظم الكتب بها.
- ٢- محبة العربية تقتضى المثابرة عليها، والعنابة بها، وتوجيه العزم والهمة إلى الحفاظ عليها.
- ٣- يربط مرة أخرى بين العربية والإيمان، فقد جعل الاعتقاد بأن العرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة من سلامة السريرة في الإيمان.

- ٤- من الدين الصحيح، فهم اللغة، ذلك لأنها سبيل العلم والطريق لفقه الدين، وقوة اليقين، وزيادة البصيرة.
- ٥- يرى الشاعري أن تحصيل اللغة ومعرفتها له مردود على سلوك المرء، حيث المروءة- التي أكد عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -وحيث العطاء والإفاضة والريادة للعالم بها.
- ٦- يشير إلى أن العربية شرفها الله وعظمها، وكرمتها ورفعها يجعلها لغة وحده، ولغة نبيه ﷺ، ولغة خلفائه في أرضه، ولغة أهل الجنة.
- ٧- أن الله سبحانه قيس لها حفظة من عباده، وخزنة من خير الناس، أفنوا أعمارهم في خدمتها، والشهر عليها، وذلك بداعي الحب لها، والتعلق بها، والدفاع عنها.
- ٨- قوله «يُحب الأدب ويتعصب لِلْعَرَبِيَّةِ» لا يفهم منه التعصب المذموم، والتشدد المقوت لها، ولا يقصد به الدعوة للعصبية اللغوية أو القبلية العربية، وإنما يراد به التعصب في الخير، وذلك بمحبها وإجادتها والتحدث بها وإحيائها وإثرائها، والزود عنها، وربطها بحياتنا وتقريرها للعوام، وتسهيلاها على أنصار المتعلمين.

#### **سادساً: القلقشندى وتفضيل اللغة العربية وسرد بعض خصائصها:**

يقول أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندى فى كتابه (صُبْح الاعْشى فى صناعة الإشاج) فى باب (فى فضلها وما اختصت به على سائر اللغات):

«أما فضلها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قال: «تَعَلَّمُوا اللَّهُنَّ وَالنَّرَائِضَ فَإِنَّمَا مِنْ دِيَكُمْ» قال يزيد بن هارون: «اللَّهُنَّ هُوَ الْأَنْجُهُ»، ولا خفاء أنها أمة اللغات وأوضحتها بياناً، وأذلتها لساناً، وأمدتها رواقاً، وأعذبها مذاقاً، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله، وختار أنبياته، وخيرته من خلقه، وصفوته

من بريته، وجعلها لغة أهل سمائه، وسكان جنته، وأنزل بها كتابه المبين  
الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

**قال فى صناعة الكتاب** «وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب، فاقتلت  
الأمم إليها يتعلمونها».

وأما ما اختصت به على غيرها من اللغات، فقد حكى في «صناعة الكتاب» أنها اللغة التامة الحروف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه، ولم يزد فيها شيء فيعييها زيادته، وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهي راجعة إلى الحروف الأصلية، وسائل اللغات فيها حروف مولدة، وينقص عنها حروف أصلية - كاللغة الفارسية - تجد فيها زيادةً ونقصاناً، وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد في الفارسية وغيرها: كالحق والباطل والصواب والخطأ، والحلال والحرام، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربياً. قال الفراء «وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة جميع الأمم اختصاصاً من الله تعالى وكراهة أكرامهم بها، ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات».

صحيح الأعشى (١٤٨/١) - (١٤٩).

#### تعقيب على رأى القلقشندي:

١- يستهل كلامه -رحمه الله- ببيان فضلها من المؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث وصيته بتعلم اللغة (تَعَلَّمُوا اللَّهُنَّ) أي اللغة.

٢- يذكر بعض خصائصها في كونها أقوى اللغات، وأوضحتها بياناً، وأكثرها ألفاظاً، وأعندها ألفاظاً . وهذا مما أعطاها السبق والفضل، فقد اختارها الله للغة كتابه وأشرف رسله ﷺ.

٣- اختصت اللغة العربية بأنها اللغة التامة الحروف الكاملة الألفاظ، لا زيادة

ولا نقصان، وأنها بها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات،  
فهي أوجز اللغات<sup>(\*)</sup>.

٤- ينقل عن الفراء قوله عظيماً في تفضيلها على لغة جميع الأمم وذلك باختصاص من الله و اختيار منه سبحانه، وامتنان على العرب و تكريمه لهم.

#### سابعاً أصحاب المعاجم الأفوية وفضل اللغة العربية:

ليس عجباً أن نجد كل صاحب قاموس لغوي -معجم- يتأنى بتبيان فضل اللغة العربية وذكر بعض خصائصها، ونظرأ لكترة المعاجم اللغوية فإننا نختار بعضها لتتوقف قليلاً عندما قالوا عن تفضيل اللغة العربية.

١- يقول «أحمد فارس» في تقديره للسان العرب:

«الحمد لله منطق اللسان بتحميد صفاته، ومُلهم الجنان إلى توحيد ذاته، والصلة والسلام على محمد أشرف مخلوقاته، وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا بقداته واهتدوا بسماته. وبعد، فقد اتفقت آراء الأمم: العرب منهم والمعجم، الذين مارسو اللغات ودرروا ما فيها من الفنون والحكم، وأساليب التعبير عن كل معنى يجري على اللسان والقلم، على أن لغة العرب أوسعها وأسعها، وأخلصها وأنصعها، وأشرفها وأفضلها، وأصلتها وأكملها، وذلك لغزارة موادها، واطراد اشتقاها، وسرارة جوادها، واتحاد انتساقها، ومن جملته تعدد المترادف، الذي هو للبلية خير راقد ورادر، وما يأتي على روى

(\*) مادمنا بصدد الإشارة إلى الإيجاز في اللغة العربية كأبرز خصائصه وإن البلاغة جمجمتها جمعت في الإيجاز فلابد على أن الإيجاز المطلوب هو الذي لا يصل بالمعنى ولا يذهب ولا ينبع حتى لا يكون شأن الملة كهذا الأحقن الذي ذكره ابن الجوزي: فقد كان بعض الأدباء ابن أحقن، وكان مع ذلك كثير الكلام، فقال له أبوه ذات يوم: يا بني لو اخترت كلامك إذ كنت لست ثاني بالصواب. قال: نعم فاتاه يوماً، فقال: من أين أقولت يا بني؟ قال: من (سوق) قال: لأن اختصرها هنا، زد الافت واللام، فقال: من (سوقاً) قال: قيم الافت واللام قال: من (النَّفْلَةِ لَمْ سَوْقَ) قال: وما عليك لو قلت: (السوق) قوله ما أردت في اختصارك إلا تطويراً.

(أخبار الحمقى والمثقلين/ ١٧١).

واحد في القصائد مما يكسب النظم من التحسين وجوهاً، لأنجد لها في غيرها من لغات العجم شبيهاً.

وهذا التفضيل يزداد بياناً وظهوراً، ويزيد التأمل تعجباً وتحيراً، إذا اعتبرت أنها كانت لغة قوم أميّن، لم يكن لهم فلسفة اليونانيين، ولا صنائع أهل الصين، ومع ذلك فقد جعلت بحيث يعبر فيها عن خواطر هذين الجيلين بل سائر الأجيال إذا كانت جديرة بأن يشغل بها البال، ونحسن في الاستعمال الذي من لوازمه أن يكون المعنى المفرد وغير المفرد موضوعاً بإزاره لفظ مفرد في الوضع، يخف النطق به على اللسان، ويرتاح له الطبع، وهو شأن العربية، وكفاماً فضلاً على ما سواها هذه المزية»

٤- أما صاحب اللسان -رحمه الله- الإمام العلامة أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، فيبدأ معجمه الكبير (الجامع «السان العربي»)

يقوله:

«الحمد لله رب العالمين، تبركاً بفاتحة الكتاب العزيز واستغراقاً لأجناس الحمد بهذا الكلام الوجيز؛ إذ كل مجتهد في حمده، مقصر عن هذه المبالغة، وإن تعالي، ولو كان للحمد لفظ أبلغ من هذا لحمد به نفسه، تقدس وتعالى؛ نحمده على نعمه التي يواليها في كل وقت ويحددها، ولها الأولوية بأن يقال فيها تَعَدُّ منها ولا تَعَدُّها، والصلوة والسلام على سيدنا محمد المشرف بالشفاعة المخصوص ببقاء شريعته إلى يوم الساعة، وعلى الله الأطهار، وأصحابه الأبرار، وأتباعهم الآخيار، صلاة باقية بقاء الليل والنهار.

أما بعد فإن الله سبحانه قد كرم الإنسان وفضله بالنطق على سائر اليونان، وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان، روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أجبوا العرب ثلاثة: لأنني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»، ذكره ابن عساكر في ترجمة زهير بن محمد ابن يعقوب».

**٣- ويقدم الشيخ نصر الهرمي (للقاموس المحيط) بقوله:**

«حمدًا لمن شرف بظهور أشرف الكائنات لسان العرب، وقسم علومه إلى نقلية هي الشريعة، وعقلية الأدب، وجعل كلاً منها متوفقاً على معرفة اللغة، وصلة وسلاماً على سيدنا محمد وأله والذين نالوا من كل فضل أبلغه».

ثم يقول رحمة الله موضحاً أهمية دراسة اللغة العربية:

قال بعض المحققين: معرفة مفردات اللغة نصف العلم لأن كل علم تتوقف إفادته واستفادته عليها، وحكمه أنه من فروض الكفايات كما ذكره السيوطي في المزهر: لأن به تُعرَف معانى الفاظ القرآن والسنة ولا سبيل إلى إدراك معانيهما إلا بالتجذر في علم هذه اللغة.. لذا قال بعض العلماء:

حَفْظُ الْلِّغَاتِ عَلَيْنَا فَرْضٌ كَحْفَظِ الصَّلَاةِ  
فَلَيْسَ يُحْفَظُ دِيَنُ إِلَّا يُحْفَظُ الْلِّغَاتِ

**٤- أما الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي فيستهل معجمه (للقاموس المحيط) بقوله:**

الحمد لله منطق البلغاء باللغى في البوادي. وموضع اللسان ألسن اللسان الهاوادى... إلى قوله.. باعث النبي الهاوادى، مفهوماً باللسان الضادى كل مضادى، وأنصح من ركب البوادي.

ثم يقول: «وعلم اللغة هو الكافل يبارز أسرار الجميع، الحافل بما يتصلع منه الفاحل والكافل والفاعق والربيع، وأن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب. وكان العمل بموجبه لا يصح إلا باحكام العلم بقدمته وجب على روام العلم وطلاب الآخر يجعلوا عظيم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جل عنائهم في ارتياههم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها، والوقوف على مثلها ورسمها، وقد عنى به من الخلف والسلف في كل عصر عصابة

هم أهل الإصابة، أحرزوا دقائقه، وأبرزوا حفائمه، ونظموا قلائده، وصنفوا وأجازوا، وبلغوا من المقاصد قاصيتها، وملكوا من المحسن ناصيتها؛ جزاهم الله رضوانه وأحلهم من رياض القدس ميظافه».

٥- وصاحب (*الصحاح*) الإمام إسماعيل بن حماد بن حماد الجوهري يقول في مقدمة معجمه:

«أما بعد فقد أودعت هذا الكتاب ماضي عندي من هذه اللغة، التي شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفيها.

٦- يقول المصحح في تقاديمه لكتاب (*جمهرة اللغة*) لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري:

الحمد لله خالق الأمم وربها ومبد الرم ومحبها ومكور الدهور ومصرفها ومقدر الأمور ومعرفها - جاعل الألسنة واختلافها آية والأزمنة ويوم الدين غاية - الكريم ولا استحقاق والحكيم بلا شقاق - الرازي المراقب المuron المراقب - له الحمد والثناء وبهذه المنع والعطاء ومنه الألواء والنعماء هو اللجاج والعصرة وبه العصمة والنصرة. والصلوة والسلام على سيد الخلق رسول الحق أفصح من نطق وأبلغ من صدق الذي أوتي الحكم وفصل الخطاب والحججة وأم الكتاب - وعلى آله الأخيار وصحابته الأبرار ما اعترك ليل ونهر.

٧- وفي مقدمة (*معنى الليسب*) يقول مؤلفه الإمام العالم العلامة جمال الدين رحلة الطالبين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري قدس الله روحه ونور ضريحه :

«أما بعد» حمداً لله على أفضاله «والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله».

فإن أولى ما تقتربه القرائح. وأعلى ما تجنيح إلى تحصيله الجوانح. ما يتيسر به فهم كتاب الله المنزل. ويتبين به معنى حديث نبيه المرسل. فإنهم

الوسيلة إلى السعادة الأبدية . والذرية إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية ، وأصل ذلك علم الإعراب . الهادى إلى صوب الصواب .

**تعقيب على ماذكره أصحاب المفاهيم اللغوية:**

- ١- ينفقون على أن اللغة العربية أوسع اللغات ، وأشرفها ، وأفضلها ، وأغزرها مادة ، وأكثرها اشتتاً ، وأوضحتها بياناً .
- ٢- تشريف اللسان العربي أمر مُقدر من قبل الله العلي الحكيم حيث شرفه بأن نزل به القرآن ، وجعله لغة أهل الجنان .
- ٣- لا سبيل إلى التبحر في العلم ، والاعتراف من معينه إلا بتحصيل اللغة فكل علم تتوقف الإفادة به على معرفة اللغة ، وعلوم الدين والدنيا تتوقف معرفتها على اللغة ، ولذا فعلم اللغة هو الذي يبرز أسرار جميع العلوم ، كما أنه علم غزير يأخذ منه كل إنسان بما يتاسب مع علمه وسنه ونضجه .
- ٤- فقه الشريعة الإسلامية مصدره لسان العرب ، ولذا وجه المتقدمون جهدهم واجتهادهم وعنايتهم لمعرفة علم اللغة ودراستها ، وتصنيفها ، وبيان محاسنها ، وكانت هي سبب لهم للإجاده والإبداع .
- ٥- يتيسر فهم القرآن العظيم وحديث رسوله الكريم ﷺ باللغة العربية ؛ لذا فتحصيلها سبيل لتحقيق المصالح الدينية والدنوية ، وعلم النحو عنْ على ذلك ، لأنَّه يهدي إلى الصواب .

#### **ثامناً: مقتبسات مما قاله بعض الأئمة:**

ونورد الآن فقرات متناثرة من كتب التراث لعلماء اللغة العربية موضحة رأيهم بشأن فضل اللغة العربية<sup>(\*)</sup>.

١- يقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) :

«وإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظرة، واتساع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتئت من العارضة، والبيان، واتساع المجال ما أوتته العرب، خصيصاً من الله لما أرهصه في الرسول ﷺ وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب».

(راجع تأويل مشكل القرآن/ ص ٢٢).

٢- يقول أبو القاسم الزجاجي في كتابه (الإيضاح في علل النحو):

«العربية هي التي فضل الله بها العرب وأنط لهم بها، وهي لغتهم».

كما يروى عن الزجاج أنه سمع العباس المبرد يقول «كان بعض السلف يقول: «عليكم بالعربية فإنها المروءة الظاهرة، وهي كلام الله عز وجل وأنباته وملائكته».

(راجع للإيضاح ص ٩١ ، ص ٩٥).

٣- وفي مجال تقرير فضله ﷺ وفضل لغته (السان) يقول أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي في مرجعه (ديوان الأدب) :

«وأما اللسان فهو كلام جiran الله في دار الخلد، وهو المترء من بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلى على كل خسيسة، والمهذب مما يستهجن أو يستشنع». (راجع للديوان: ١ / ٧٠ - ٧٢).

<sup>(\*)</sup> أخذنا في هذا الجزء من كتاب أستاذنا الاستاذ الدكتور محمد حسن جبل (خصائص اللغة العربية - تفصيل وتحقيق) القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٧ ، ص ٣٢ - ٣٥.

٤- ويرى الإمام أبوالحسين أحمد بن فارس صاحب كتاب (الصاحب) رأياً صريحاً في القول بأن العربية أفضل اللغات وأوسعها «واختصت بخصائص لاميل لها كالإعراب، والشعر، والعرض».

(ارجع للصاحب ص ١٦ ، ص ٧٦)

٥- أما ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب (سر الفصاحة) فيشير لفضل اللغة العربية ذاكراً أنه لا خفاء ببرقة العربية على سائر اللغات، لما فيها من السعة، وأنها مع ذلك أخصر اللغات في إيصال المعانى، ولتجنب التقلل في ألفاظها، ولأن أصحابها العرب لاتزاهم أمة في فضائلهم، ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم». (ارجع لسر الفصاحة ٤٨ - ٥٧).

٦- ويقول أبوعثمان سعيد بن محمد المافري السرقسطي في (الأفعال) « وأن أشرف ما عنى به الطالب بعد كتاب الله عز وجل لغات العرب وأدابها، وطراائف حكمها، لأن الله تبارك وتعالى اختارها بين اللغات لخير عترة وأشرف أمة، ثم جعلها لغة أهل دار المقامات في جواره ومحل كرامته؛ فهي أفصح اللغات لساناً، وأوضحتها بياناً، وأقومها مناهج، وأنفقها أبنية، وأحسنها بحسن الاختصار تالفاً، وأكثراها بقياس أهلها تصريفاً» (٥١/١). (ارجع للأفعال).

\* تعقيب عما قاله العلماء من (المقتبسات) السابقة عن ابن قتيبة والزجاجي، والفارابي، وابن فارس، والصاحب، وابن سنان، والسرقسطي...، نوردها هنا تعليماً لا تفصيلاً، وعملاً لما اتفقا عليه من مقولاتهم السابقة فيما يلى:

(\*) في نهاية ماذكرناه من آقوال الأئمة في شأن تفضيل اللغة العربية نجد رأياً لابن حزم الاندلسي في شأن تفضيل اللغات، فيقول «وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لامعنى له، ولأن وجود الفضل معروفة، وإنما هي بجعل واحتياص، ولا عمل للغة، ولا جاء بغير في تفضيل لغة على لغة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرسلَ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمٍ لَّيْسَ لَهُمْ فِي شَاءَ وَهُدِيَّ مِنْ شَاءَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فأخير تعالي: أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام، لا لغير ذلك (الحكم في أصول الأحكام في ٣٣/١). ذكرناه من أجله قوية على أوجه تفضيل اللغة العربية؛ فيه رد على كلام ابن حزم رحمه الله، وحسبنا بعد ذلك ما قاله ابن حزم نفسه في الصفحة التالية تقلياً عن بعض العلماء: إن العربية أفضل اللغات لأنها بها نزل كلام الله تعالى (المصدر ذاته ٤٤/١).

- ١- فضل اللغة العربية مرتبط بفضل القرآن الكريم، الذي لا يعرف فضله إلا من اتسع علمه، وكثُر نظره، واللغة سبيل لذلك.
  - ٢- تفضيل العرب كان بالعربية، فيها فُضلاً، وكرُمها، وبها نطقوا، وبها مُيزوا، وبدت مناقبهم وفضائلهم ومحاسنهم.
  - ٣- اللغة العربية أُفصح اللغات لساناً، وأوضحتها بياناً، وأقرّتها منهجاً، وأحسنتها إيجازاً واختصاراً وقد اختارها الله لأشرف نبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي لغة أهل الجنة.
  - ٤- اختصت اللغة العربية باليان، والسرعة، واتساع المجال وعدم التقليل، والإعراب، والعروض، والإيجاز، فضلاً عن تزييفها عن كل نقصة، وبعدها عن كل خسيسة، وتهذيبها عن كل مستهجن.
  - ٥- الالتزام بالعربية تحقيقاً للمرودة الظاهرة لدى المتحدث بها؛ حيث إنها أسرع تأثيراً، وأفضل إيانة، وأكثر جذباً وقبولاً لدى المستمع..
- وبعد هذا العرض لكلام الأئمة فلستنا في حاجة لكتير قول في فضل اللغة العربية، بيد أن ما نؤكد عليه هو فضل التحدث بالعربية للمسلم، ولو كانت هذه هي الفائدة الوحيدة من هذا التناول التي دائمًا ما نؤكد عليها لكفتنا، ولو خلص القارئ بذلك لكتفاه وغناء..
- ولست أحسبك تميل إلى رأي هؤلاء الواصفين للعربية بالصعوبة والتعقيد والغموض؛ مما استهدف به ديننا ولغتنا، وما أضحي من قبيل المسلمات والثوابت لدينا أن معارضين حاذقين مرضى هم الذين يشيعون ذلك، ويصدقون أنفسهم.

\* \* \*

**المبحث الخامس**

مواقف لغوية من التراث

في الحرص على اللغة

والالتزام بها والحفاظ عليها



## **المبحث الخامس: مواقفه لخواية من التراث في الحرص على اللخة والالتزام بها والحفاظ عليها**

نعرض في هذا الجزء بعض المواقف المختارة من كتب التراث؛ نستلهم منها هدایةً ورشاداً في مجال الحرص على اللغة والحفظ عليها، وذلك من خلال ثلاثة محاور، نعرض في أولها: لكيفية حرص علماء العربية على لغتهم مثل أبي الأسود الدؤلي، وأبي عمرو بن العلاء.. ونجد الإحساس القوي باللغة ومعانيها لدى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولدى الإمام الشافعى رحمة الله، ولدى الحاج بن يوسف الشقفى؛ من خلال مواقف لغوية كانوا طرفاً فيها..

ثم نعرج في ثانها: إلى التحرز اللغوى لدى علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم، مؤكدين على العلاقة العضوية بين اللغة العربية والقرآن الكريم؛ ومستشهدين بذلك بآثرات عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهمَا، وعن محمد بن زياد رحمة الله.

وفي ثالثها: نتحدث عن عناية العلماء بال نحو وبالتحدث بالفصحي وعدم الواقع في اللحن؛ ذاكرين أهمية علم النحو وقيمة للمرء وموقعه من علوم اللغة، ونعرض بعض أقوال لهارون الرشيد والإمام مالك رحمة الله في فضل التحدث بالعربية، ونبين بعد ذلك خطورة اللحن في اللغة؛ مستشهدين بذلك بآثرات لزياد بن أبيه ولالمخلية عمر بن عبد العزير رضي الله عنه، ولأبي عمرو بن العلاء ولعبد الملك بن مروان.. ثم نوجز كل ذلك بخاتمة ملخصة للمحاور الثلاثة.. وتفصيل ذلك كله فيما يلى:

### **أولاً: حرص علماء العرب على اللغة:**

**عنى العرب بلغتهم؛ لأنها كانت الوسيلة التي كانوا يستخدمونها في التحدث بتأثيرهم، والتغنى بأمجادهم، وكانت سلاحهم في المناظرات والمنافرات.**

وكان العربي يتعصب للغة قومه، ويباهي بصفاء لهجته، وكان يحرص على تنقية لغته، ويولى أبناءه عناية خاصة، فينشئهم في البوادي «مناطق الفصاحة» ويعدهم عن الحواضر؛ التي تختلط فيها اللغات، ويبيتني بذلك طبعهم بطابع الفصحي الحالمة من شوائب الحاضرة.

وكان من مزيد عناية القوم باللغة أن ميزان التفاضل بين الأئمة وحملة اللغة كان سمة معرفة الرجل بكلام العرب ولغاتها وغريبها، وكان الأمراء والملوك والخلفاء وأعيان الأمة يتسابقون إلى تأديب أبنائهم، أى تعليمهم الأدب العربي من اللغة والنحو والشعر وأخبار العرب ومفاخراتهم ومنافراتهم؛ ليحفظوا كلامهم ويقووا به ملوكهم اللغوية، وكان أكبر عيب في الشريف العربي أن يلحن في كلامه فلا يأتي بالحركات الإعرابية أو الحركات اللغوية على وجهها، كل ذلك كان في سبيل حفظ اللغة ورونقها وجدتها، وتقوية ملكة الفصاحة في النفوس.

(ارجع لمجمع متن اللغة ٥٢ / ٥٣)

وقد انحصر جهد علماء العربية في التعمق في دراسة اللغة العربية لمعرفة أسرارها، وقوانينها؛ بهدف فهم النصوص الدينية والمحافظة على أصلية العربية من تأثير الجماعات اللغوية الأخرى؛ التي اعتنق أفرادها الإسلام.

ونلمح حرص العلماء على اللغة واقتدارهم لها؛ مما ذكر أن أبي الأسود الدوّلي أقدم أئمة اللغة، قالت له ابنته متعجبة، وقد نظرت إلى السماء ونجومها في ليلة صافية «ما أحسن السماء!!» ورفعت أحسن، وحقها في التعجب النصب وفي الاستفهام الرفع، ففهم أبوها الاستفهام على ظاهر ما تكلمت به، فقال لها في الجواب: «نجومها، أى أحسنها نجومها». فأدركت خطأها، وقالت: أنا متعجبة ولست بمستفهمة. (وكان هذا دافعاً لوضع أبي الأسود لعلم النحو بعد أن أشار عليه الإمام على بن أبي طالب بذلك).

وقد بلغ تعلقهم باللغة وشغفهم بها أن قدموها على ما عدتها من أمور عظام، ومن ذلك أن أبو عمرو بن العلاء كان مولعاً باللغة، فخرج مع أبيه إلى اليمن هاربين من بطش الحجاج بن يوسف الثقفي، وبينما هما بصحراء اليمن إذ لحقهما لاحق، ينشد:

رُبِّمَا تَكُرُّهُ التُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ  
لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِ الْعِقَالِ

قال أبوه: ما الخبر؟ قال المنشد: مات الحجاج. قال أبو عمرو: فانا بقوله (فرجة) أشد سروراً مني بموت الحجاج..

(ارجع لوفيات الأعيان: ١٣٧/٣)

ولعلنا لا يخفى علينا الحس اللغوي لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما لحظ ملحوظاً جيداً في الواو الفارقة، وبذلك عندما دار حوار بينه وبين رجل بشأن ثوب، فقال الصديق: أتبיע هذا الثوب؟ فقال الرجل: لا يرحمك الله.. فقال أبو بكر: يا هذا قل: لا .. ويرحمك الله..

وهذا إحساس قوى بأهمية الحرف الواحد، في اختلاف المعنى ونقله من دلالة المدح إلى النم، أو نقلها من مجرد الدعاء له إلى الدعاء عليه.. وهذا بالطبع يحتاج إلى إقدار اللغة وتراثيتها ودلاليتها.

وليس بعيد هذه الرواية التي نقلت عن الإمام الشافعى رحمه الله - فى أمر قريب مما تقدم- وذلك عندما دخلت عليه امرأة فى مرضه؛ فدعت له بالشفاء بقولها، «ادعو الله أن يشفيفك» فتقبسم الشافعى وقال «الله بقلبيه وليس بلسانها».

والمعنى أنها كان ينبغي أن تقول (يشفيفك) من الشفاء资料的真伪 from the source itself.

قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. أما ما فطن إليه الشافعى - وهو الشاعر والأديب - أن (يُشفيك) بمعنى ال�لاك<sup>(\*)</sup>. ومن هنا جاء تعقيبة الاستدراكي - الطريف الذكى - على كلام هذه المرأة، التى أفلت منها المعنى وانقلب إلى مقابلة (ضده) لمجرد اختلاف الحركة من الضبطية على الحرف فى أول الكلمة.

وما دمنا قد أشرنا لقول الشافعى رحمة الله فإنه يقفز إلى ذهتنا هذه الظرفة العجيبة؛ التى دارت بين الحاجاج بن يوسف وبين غلام؛ أغاظ القول على الحاجاج، وأنهى مناظرته إياه بقوله للحجاج **«يا أمير بيض الله وجهك وأعلى كعبك»** «فسأل الحاجاج جلساه: ماذا أراد الفتى بقوله هذا؟ فقالوا: يدعوك يا أمير. فقال لا، إنه يدعوك على...». قوله: **«بيض الله وجهك»** أراد بي الرص، وقوله: **«أعلى كعبك»** أراد بي أن أصلب، فيعلى كعبي... فقال له الحاجاج: ألسنت تقصد هذا يا فتى؟ قال له: **«بلىًّا ما أشد ذكائك!! قاتلك الله»**.

#### ثانياً، التحرز اللغوى عند علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم:

لعل العلاقة الطبيعية بين فهم اللغة العربية وبين علم التفسير جعلت عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يلتجأ فى تفسيره للقرآن الكريم إلى الأصول اللغوية عند العرب وكلما سئل عن معنى آية قرآنية؛ فإنه يستشهد بالشعر الجاهلى فى إثبات معنى ما، أو يستعجم عليه المعنى حتى يجد ضالته فى الشعر الجاهلى. إذ يتطلب التفسير رصيداً لغويًا كبيراً، وقدرة على استحضار المعنى من آيات الشعر الجاهلى.

(\*) (يُشفيك) بضم الياء فى أوله ماخوذة من الأصل الرباعي (أشف)، أي أشفى على ال�لاك، ومنه فى الحديث «فأشفوا على المرج» أي أشرفوا، وأشفوا على الموت. أما (يُشفيك) بفتح الياء فهو ماخوذة من الثلاثي (شفى) أي من البرء من المرض والستم وهو المشار إليه فى الآية الكريمة **﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾**. (ارجع إلى لسان العرب ٤٣٦/١٤).

وهو في هذا يتضمن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أيها الناس عليكم بديوانكم لا يصل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلي».

ويستشهد عمر نفسه بقول الشاعر أبي كbir المذلى:

تَخُوفَ الرَّجُلُ مِنْهَا تَأْمِكَنَ قَرْدًا كَمَا تَخُوفَ عَوْدَ التَّبْعَةِ السَّفَنِ  
وذلك لتفسير قوله تعالى ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخُوفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧]. أى يهلكم الله حال كونكم خائفين متربصين.

وقد فسر عمر بن الخطاب التخوف بالتنقص؛ وذلك استرشاداً بالبيت السابق.

وابن عباس رضي الله عنهما من أكثر الصحابة اهتماماً بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن الكريم.

كما نجد في الأعراب في البدية؛ ليستقي منهم أمراً دلالياً معيناً، ومن ذلك ما رواه سفيان الثورى عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بشر فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أى بدأتها..

وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [فاطر: ١٠].  
(تفسير ابن كثير: ٤ / ٥٤٦)

كما يقول عن نفسه: ما كنت أدرى ما معنى قوله تعالى ﴿رَبَّنَا أَفْسَحَ بَيْنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٠]. حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تعالَ أَفَاتَحْكَ. تقول: تعالَ أَخَاصِمْكَ.

(الإتقان: ٢ / ٥)

وكما أشرنا فقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما كثيراً من الآيات مستعيناً بكلام العرب وأشعارهم، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان أسلة نافع ابن الأزرق له، فقال:

« بينما عبد الله بن عباسجالس بفناء الكعبة؛ قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن؟ فقال نافع لنجدية بن عويمر: قم بنا إلى هنا يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به؛ فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتتصدرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما إنما أنزل القرآن [المعارج: ٣٧] قال: العزون الحلق الرقاق، قال: وهل تعرف العرب ذلك، قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص، وهو يقول:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عَزِيزِهِ

قال أخبرني عن قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَة﴾ [المائدة: ٣٥].

قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، ماسمعت قول عترة وهو يقول:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكَحَّلِي وَتَخْضُبِي

(الإتقان ٢/٦٩ - ٦٧)

إلى غير ذلك من الأسللة والأجوبة التي أوردها السيوطى والتي يُفهم منها أن الشعر ديوان العرب، فإذا خفى عليهم المعنى الذى أنزل الله بلغة العرب رجعوا إلى ديوانها.

وابن عباس، وهو حبر هذه الأمة وعالها لا يخلو من أن يقول «كنت لا أدرى...» وهذا منهج محمود فى إقدار قيمة الكلمة والتوعر عن الخطأ، ولذا نجد محمد بن زياد يسأل عن أكثر من سأله فى مجلس واحد فيقول: لا أدرى..

ويسائله رجل: مامعني ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (\*). [طه: ۵۰].

فيقول ابن زيد: هو على عرشه كما أخبر «قال الرجل ليس كذلك. هو يا أبا عبد الله إنما معنى قوله تعالى استوى استولى فقال ابن الأعرابي: أسكنت ما يدركك ما هذا. العرب لا تقول للرجل استولى على الشئ حتى يكون له فيه مضاد، فائيهما غالب قيل: استولى عليه. والله لا مضاد له، وهو على عرشه، كما أخبر. والاستيلاء بعد المغالبة، قال النابغة:

الَا لَمْثِلَكَ اُو مَنْ اَنْتَ سَابِقُهُ  
سَبَقَ الْجَوَادَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَسْدِ

ثالثاً: عنائهم بال نحو، وبالتحدث بالفصحي، وعدم اللحن،

ال نحو - كما يقول القلقشندي - قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها، وهو علم لا يستغني عنه، ولا يوجد منه بد، والجهل بال نحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة، ولكن يقدح في الجهل به نفسه، لانه رسوم قوم تواضعوا عليه، وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم.

وال نحو هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن، وهي لغة النبي الكريم ﷺ وكلام أهل الجنة ولسان أهل السماء.

(صحيح الأعشى ١٦٧ - ١٧٢)

ولأن اللغة العربية هي رأس مال الملة، وأساس مقاله وكلامه، وكنز إنفاقه، وحيثند يحتاج إلى المعرفة بال نحو وطرق الإعراب، والأخذ في تعاطي ذلك، حتى يجعله دأبه، ويصيده دينه؛ ليرتسم الإعراب في فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقاله وكلامه، ويزول به الوهم عن سجنته، ويكون على بصيرة من عبارته..

(\*) يرى السلف في تفسير هذه الآية أن الله سبحانه أخبر في سبعة مواضع من كتابه أنه استولى على العرش، ولا معنى لذلك إلا علىه وارتفاعه عليه سبحانه، وهذا هو رأي المفسرين. واللغة لاتستعمل الاستواء متعدياً بمعنى الملاو والارتفاع، وأما تأويله بالاستيلاء على العرش استناداً لقول الشاعر:  
قد استوى بشر على العراق بغير سيف أو دام مهران  
فهذا مما لائق به، لأن الاستيلاء يقتضي التصارع والمنازعة بان يكون العرش في حوزة غيره سبحانه، ثم يستولى هو عليه.. وهذا معنى قبيح لا يمكن الخلوص إليه عقلاً أو لغة أو دينا.

وكما قال القدماء: فإذا أتى المرء من البلاغة بأعلى رُتبة، ولهن في كلامه، ذهبت محسن ما أتى به، وانهدمت طبقة كلامه، وألغى جميع محسنته، ووقف به عندما جهله.

ولذا: فهذا العلم - النحو وعدم اللحن- ليس مختصاً بعلم اللغة، بل هو واجب لكل العلوم، وينبغي معرفته لكل أحد ينطق اللسان العربي؛ ليأمن معزة اللحن.

وكما قال صاحب (الريحان والريغان): ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ يحثون على تعلم اللغة العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها؛ إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحل المخصوص. (وقد مر من كلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ما يؤكّد ذلك).

وفي فضل التحدث بالعربية والالتزام بها نسوق... قول هارون الرشيد يوماً لبنيه «ما ضرَّ أحدكم لو تعلَّم من العربية ما يُصلح به لسانه، أيسِرُ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبدٍ وأمتَه؟».

ومن كلام الإمام مالك بن أنس «الإعراب حُلُّ اللسان فلا تَمْتَعُوا بِالسِّكُونِ حُلُّهَا».

ويعد ذلك قول أبي سعيد البصري:

النَّحُوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَكْنَرِ وَالْأَنْزَرِ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنْ  
وَإِذَا طَلَبَتِ مِنَ الْعُلُومِ أَجَاهَا فَأَجَلَهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسُنِ  
ولذا فاللحن قبح في كبراء الناس وسراتهم، وإذا حدث لحن - خطأ  
لغوي- فسد المعنى، فاللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد إلى ضده؛  
حتى يفهم السامع خلاف المقصود.

ومن ذلك ماروا أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ورسوله ﷺ [التوبه: ٣٠]. وذلك بجر رسوله، فتوهم عطفه على المشركين. فقال:

أو قد برىء الله من رسوله؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر  
الآية القراءة إلا من يحسن العربية.

وقرأ آخر **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عَبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨]. وذلك برفع  
الأول ونصب الثاني، فجعل الله يخاف العلماء بقوله الفتحة إلى ضمة،  
والضمة إلى فتحة فقيل له: ياهذا إن الله لا يخشى أحداً، فتبه لذلك وتقطن  
له<sup>(\*)</sup>.

وقال رجل لآخر: ما شأتك؟ بالنصب، فظن أنه يسأل عن شئ به، فقال  
عظيم في وجهه (وحقه أن يقول: ما شأتك).

وتروى هذه الطرفة العجيبة في أهمية الالتزام باللغة وعدم الوقوع في  
اللحن، فقد دخل رجل على زياد بن أبيه فقال: إن أبونا قد مات، وإن أخيها  
قد وثب على مال أبيانا فأكله، فقال زياد: **لَذَّنِي أَصْعَتَهُ مِنْ كَلَامِكِ - لسانك -**  
**أَصْرَّ عَلَيْكِ مَا أَصْعَتَهُ مِنْ مَالِكِ**.

ونجد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يلحن ذات مرة؛  
فُبِه إلى ذلك فما كان منه إلا أن حبس نفسه في منزله ومعه من يعلمه  
العربية، ولم يخرج على الملا إلا وهو أفعى الناس.

ولذا نرصد له -لعمرا بن عبد العزيز- قوله عظيماً في خطورة اللحن  
حيث يقول: «إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فارده عنها،  
وكأنى أقصم حب الرمان الحامض، لبغضى استماع اللحن. ويكلمني آخر في  
الحاجة لا يستوجبها فيُعرب فاجبيه إليها؛ التذاذا لما أسمع من كلامه».

وقوله أيضاً: **«أَكَادُ أَضْرِس إِذَا سَمِعْتُ الْلَّهْنَ»**.

(ارجع للإضداد لابن الأباري / ٢٤٥)

(\*) تشير هنا إلى وجود قراءة -شاذة- للاية الكريمة وذلك بفتح (الله) ونصب (العلماء) على معنى انتقالى  
أراد به بعفهم أن الله يخاف العلماء أي لا يعنهم العلماء من عباده يوم القيمة، وهذا تزيد لغطي ودلالي  
في فهم الآية الكريمة ولاتهليه، خاصة أن القرآن الكريم يفهم طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكليف  
ولانعنى.

ولذا مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بргلين؛ برميان، فقال أحدهما للآخر أسبت (يعنى أصبت) فقال عمر: «سُوءُ اللحن أشدُّ من سُوءِ الرمي». ويروى أن أبي عمرو بن العلاء من بالبصرة فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها «لأبو فلان» فقال: «يارب يلحتون ويرزقون».رأيت كيف ربط بين الواقع في اللحن وبين قضية الرزق.

و لعلك تعجب من هذه العلاقة العجيبة بين الحرص على اللغة وبين الوقار والهيبة من هذه الرواية: فقد روى أن عبد الملك بن مروان وإن لم يكن قد عُرف عنه اللحن فإنه كان يتتجبه ويتوقه ولهذا حين سُئل: لماذا عجل الشيب إلى رأسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «شيتني مواقف الخطابة -المابر- وتوقع اللحن».

وليس عجلاً أن نجد أن أبي أيوب السخياني كان إذا لحن في حرف قال: استغفر الله.

وينبغى أن نشير أن حرص العلماء على اللغة وعدم اللحن فيها، لايعنى تصرّفهم في استخدامها، أو استعمال الغريب والمحشى منها، حيث نجد نهياً نبوياً عن ذلك في قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذى وأبوداود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهمَا إِنَّ اللَّهَ يَعْنِسُ الْبَلْيَغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّ بِلِسَانِهِ كَمَا تَخَلَّ بِالْبَقَرَةِ وَفِي قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ التَّرْمِذِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «... وَإِنْ أَبْغُضْكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدْكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ الثَّرَاثُونَ وَالْمُشَدِّقُونَ وَالْمُنْتَهِيَّمُونَ»(\*).

(\*) الثراث: كثير الكلام تكلفاً، والمشدق المطاول على الناس بكلامه ويكلم على، فيه تناصحاً وتعظيمًا للكلام. والمنتهى: الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه، ويعرّب به تكبراً وارتقاً وإظهاراً للنفعية على غيره.

والتقعر والتشدق المنهي عنهم يكتونان بتكلف الفصاحة والتصنع المزوم  
في الكلام والزيادة فيه؛ مما لا يدخل في تحسين الألفاظ ورشاقة اللفظ **«فَمَا قَلَّ**  
**وَكَثُرَ خَيْرٌ مَا كَثُرَ وَاللَّهُ»**.

ولعلك تعجب من ثناهم على خطبائهم وفصحائهم لولا أنهم يتقدرون  
في الكلام، وجاء في هذا المعنى أن زرعة بن ضمرة، وهو الذي قيل عنه  
**«لَوْلَا غَلَوْ فِيهِ مَا كَانَ كَلَامُهُ إِلَّا ذَهَبَ»**.

(البيان والتبيين ١/٣٥٤)

ويقول القلقشندي: أما المبالغة في الإعراب والمبالغة - فإن حكمه في الاستكراه حكم التقرير في الغريب، وقد كانوا يزمون من يتعانه، ويسيرون  
من يتعاطاه، قال الأصممي خاصم عيسى بن عمر النحوى رجلاً إلى بلاد  
ابن أبي برد، فجعل عيسى يُشيع الإعراب ويتعمعق في الألفاظ، وجعل  
الرجل ينظر إليه، فقال له القاضى: **«لَأَنْ يَلْهَبْ بَعْضُ حَقِّ هَذَا أَحَبْ إِلَيْهِ مِنْ**  
**تَرْكِ الْإِعْرَابِ، فَلَا تَشَاقِّ بِهِ، وَاقْصِدْ بِحُجْجَتِكِ»**.

(صبح الأعشى ١/١٧٢)

ونجد فيتراثنا من تحذق في استعمال اللغة بما لا يليق به المقام، ولا  
يحتمله الموقف، وهذا في تصورنا رغم أنه يدو التزاماً باللغة إلا أنه مذموم  
لعدم مناسبته لقضى الحال ومن ذلك ما يروى: أنه قدم على ابن علقة  
النحوى ابن أخ له فقال له: ما فعل أبووك؟ قال مات، وما فعلت علته؟ قال  
ورمت قدميه، قال «قل قدماء» قال: فارتفع الورم إلى ركباه، قال: قل  
ركبتيه فقال: دعنى ياعم فما موت أبى باشد على من نحوك هذا!!

ويبدو أن أبا علقة النحوى اشتهر بالتحذق وذلك لكثره ما نُقل عنه في  
ذلك، ومن ذلك أنه -أبوعلقة- دخل على طبيب، فقال: امتع الله بك،  
إنى أكلت من لحوم هذه الجوازم فطشت طسأة<sup>(\*)</sup> فأصابنى وجع من الوالبة

(\*) طسأ: أي انثم وأكل فوق طاقته.

إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الحلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال نعم خذ حرقناً وسلقناً وسرقاً فزهرقه وزقرقه وأغسله بماء روث واسريه فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك هذا، فقال أفهمتك كما أفهمتني . وهذا كله ينافي الفصاحة والبلاغة، لأنه تشدق وتتعبر وتتكلف وتحذل، وهذا من المذموم في الكلام.

ونخلص من المحاور الثلاثة السابقة إلى عدة نقاط مهمة نعرض لها فيما يلى:

- ١- أن العرب حرصوا على لقائهم، وأولوها مزيد اهتمامهم، وكانت ميزان تفاضلهم .. ولذا سعوا إلى التعمق في دراسة أسرارها وفهمها؛ إذ هي السبيل لفهم النصوص الدينية.
- ٢- الحس اللغوي لدى الصحابة والعلماء والأئمة استمد أساسه من إدراكيهم لأهمية اللغة في تغيير المعنى، وإقدارهم لقيمة الحرف أو الكلمة في الدلالة والمراد.
- ٣- تطلب تفسير القرآن الكريم إلماً باللغة، ورصيداً كبيراً منها وهذا ما جعل الصحابة رضوان الله عليهم يستعينون بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن الكريم، واستقراء ما غمض من معانٍ.
- ٤- التحرر اللغوي لدى علماء العرب جعلهم يضعون اللغة والإفتاء فيها بمتزلة العلوم الشرعية، وهذا تأكيد لورعهم اللغوي، وإقدارهم لقيمة الكلمة، والتورع عن الخطأ.
- ٥- يمثل التحوّل عمود العربية وأسسها وقوانينها وميزانها، ولذا فهو سبيل الإجاده اللغوية والفصاحة، أنه علم لا يستغني عنه للمحدث والكاتب والقاريء المستمع .. كما أنه رأس العلوم أو العلم المستطيل الذي يدخل في كل العلوم «دينية ودنيوية» فهو واجب ومطلوب لكل العلوم، وينبغى معرفته لكل ناطق بالعربية.

- ٦- حد الخلفاء الراشدون على تعلم العربية والتحدث بها<sup>(\*)</sup> وحفظها ورعايتها، وذلك لمكانها العظيمة في الدين ..
- ٧- **قبح اللحن - الواقع في الخطأ اللغوي - لدى العلماء**، لأنه يفسد المعنى ويغيره ويقلبه إلى غير المراد منه وخاصة عندما يكون في قراءة كتاب الله بتغيير حركة إعرابية؛ فيؤدي ذلك إلى الزلل والخطأ البين.
- ٨- حد العلماء الخطأ في اللغة والواقع في اللحن وضياع اللسان أشد ضرراً من ضياع المال .. كما أن إجاده المرأة لغتها يؤدى إلى قضاء شؤون حياته بسهولة ويسر.
- ٩- هناك علاقة بين الالتزام باللغة وبين الوقار والهيبة لدى من يفعل ذلك، والعلاقة نفسها بين الواقع في اللحن وبين ضرورة التكفير عن ذلك بالاستغفار لدى بعض العلماء.
- ١٠- هناك ذم للتقرع والتحذق والتكلف في اللغة، وذلك بالبالغة في الإعراب، واستخدام الغريب من الكلام والتصنع المذموم فيه، وإدعاء الفصاحة، وقد يؤدى هذا إلى سخرية المستمع منه، وإلى ضياع حقوق المتقرع لنفور الناس عنه، وعدم تحملهم لغته.

\* \* \*

<sup>(\*)</sup> لم يعلم من تمام المعرفة أن نشير لمقوله مهمة، تعهد ما ذكره السلف بشأن فضل التحدث بالعربية، وردت في وصايا أحد العلماء المعاصرين حيث قال: تحدث العربية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً فإنها لغة القرآن.



## الخاتمة

بعد أن طوفنا في حديقة اللغة العربية، وقطفنا بعض ثمارها فلا نجد حاجة للتأكيد على فضلها، وضرورة الحفاظ عليها، والالتزام بها والحرص على التحدث بها، واعتبار ذلك واجباً دينياً.

وقد قدمنا من النصوص الدينية ما يؤكد سموها وأفضليتها، وقدمنا من أقوال السلف ما يؤكد تميزها وتفردها، وععددنا ذلك بواقف لغوية في الحرص على اللغة والتحرز من الخطأ، وتقبيح الخطأ.

وفي المبحث الأول كان تركيزنا في الطرح النظري على أوجه فضل اللغة العربية، وبيان بعض خصائصها وإبراز العلاقة بينها وبين القرآن العظيم، وكذا إبراز حال اللغة العربية هذه الأيام في مجتمعنا المسلم.

أما في المبحث الثاني فقد حرصنا فيه على دراسة الآيات القرآنية التي ضمنت لفظ (العربية) أي الإشارة إلى كون القرآن الكريم عربياً، وذلك من خلال تحليل هذه الآيات الأحدى عشرة والتعليق عليها.

وكان المبحث الثالث ساحة في أحاديث الرسول الكريم ﷺ؛ لتتوقف عند بعض ما ورد عنه في مجال فضل اللغة العربية وكونها لغة أهل الجنة، وبيان دعوته ﷺ للغة العربية وتأكيد فضاحتها وبلاستيده وقوتها لغته.

ثم عززنا ذلك برصد ما قاله الأئمة والعلماء في فضل اللغة العربية وفضل تعلمها وخيريتها وأوجه تفضيلها وسر تفوقها، وذلك من خلال ما قالوه في فترات تاريخية مختلفة، وهذا ما عرض له المبحث الرابع.

أما المبحث الخامس، فجاء استلهاماً لواقف لغوية من التراث في مجال الحرص على اللغة والتحرز من الخطأ وبيان مدى عنائية العلماء بال نحو

وبالتحدث بالفصحي وعدم اللحن، وضرورة الالتزام بالعربية، وتأكيد الجانب الديني في دراسة اللغة، وخطورة التفريط في اللسان العربي .  
ويبرز تساؤل في نهاية رحلتنا عن حاجة المسلم إلى اللغة العربية .

الحق أكثنا أنه لو لا القرآن الكريم لما انتشرت اللغة الفصحي في الخافقين ، ولو لا القرآن لما أقبل الآلوف من البشر على قراءة تلك اللغة ، وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها ، وبلغة القرآن تقهقرت لغات محلية في الدول المفتوحة .. فالقرآن العربي هو الحصن الذي تحتمي به اللغة العربية ، وتقاوم أعاصر الزمان ، وعواصف الهدم والعداء ..

ونظراً للعلاقة الطبيعية بين الإسلام واللغة العربية ، لذا وجب على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده؛ لأنها لغة صلاته وتسييحه؛ خاصة أن القرآن الكريم لا يُترجم بلفظه ، وكلما تعلم المسلم اللغة العربية كان خيراً له في فهم أمور دينه .

وحاجة المسلم إلى اللغة تكون بنفس قدر حاجته إلى هداية القرآن فالتفقه في العربية وتعلمها وفهمها من الدين ، والالتزام باللغة هو ثبيت للعقل وزيادة في المروءة ، والتتحدث باللغة الفصحي وعدم اللحن فيها والبيان بها كل هذه نعم من الله تعالى على المرء كما أكثنا على ذلك بنصوص عديدة .

وحسيناً أن نؤكد المعانى المتقدمة بما قاله الإمام ابن تيمية بشأن اللغة العربية وضرورة الاعتياد عليها وتعلمتها «إن اللسان العربى شعار الإسلام وأهله ، وأعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيأ . وأن اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولائيهم إلا باللغة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويكره الخطاب والتعاقد بغير اللغة إلا لحاجة» .

وختاماً . فهذه لغتنا ، وهذا فضلها ، وهذا ماورد بشأنها من أوجه تفضيل ، وهذا هو الدر كامن فيها .. فـأين الغواص؟ ..

والله أسأل أن يجعلنا من حفظة لغته، وأن تكون دعوتنا إلى الالتزام  
بالعربية والحفظ علىها وعدم التفريط فيها في ميزان حسناتنا يوم القيمة..  
وأن ينفع الله بهذا العمل بقدر ما يؤمل من ورائه من فائدة إن شاء الله..

والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين..

\* \* \*



### **بعض المراجع المستعان بها**

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - إبراهيم أنيس : **اللغة بين القومية والعالمية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.
- ٣ - أحمد جمال العمري : **مفهوم الاعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤.
- ٤ - أحمد رضا : **معجم متن اللغة**، بيروت، دار مكتبة الحياة.
- ٥ - أحمد رضا : **مولد اللغة**، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٣.
- ٦ - أحمد سمير ببرس : **الواقع اللغوي والهوية العربية**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٩.
- ٧ - أحمد مختار عمر : **العربية الصحيحة**، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨١.
- ٨ - أنور الجندي : **الفصحي لغة القرآن**، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- ٩ - الشعالي (أبو منصور) : **فقه اللغة وسر العربية**، بيروت، دار مكتبة الحياة.
- ١٠ - جابر قميحة : **أدب الخلفاء الراشدين**، دار الكتب الإسلامية، ودار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني.
- ١١ - الحافظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : **البيان والتبيين**، القاهرة، مكتبة الشاتبي، ١٩٨٥.
- ١٢ - ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن على) : **أخبار الحمق والمغفلين**، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٩٧٩.

- ١٣ - ابن جنى (أبو الفتح عثمان) : **الخصائص**، بيروت، دار الهلال للطباعة والنشر.
- ١٤ - الجوهري (إسماعيل بن محمد) : **تاج اللغة وصحاح العربية**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩ م.
- ١٥ - جمال العيسوى، أحمد عبده عوض : **اللغة العربية ثناذج أدبية ونقدية**، مطبعة أورفو، ١٩٩٢ م.
- ١٦ - الخفاجى (ابن سنان) : **سر الفصاحة**، القاهرة، مطبعة محمد على صبيح، ١٩٦٩ م.
- ١٧ - ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري) : **جمهرة اللغة**، بيروت، دار ضاد.
- ١٨ - الزجاجى (أبو القاسم) : **الإيضاح في علل التحو**، بيروت، دار الفائق، ١٩٨٢ م.
- ١٩ - الأزهرى (أبو منصور) : **تهذيب اللغة**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ٢٠ - السرقسطى (أبو عثمان سعيد بن محمد) : **الأفعال**، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥ م.
- ٢١ - السيوطى (عبد الرحمن جلال الدين) : **الإتقان في علوم القرآن**، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي.
- ٢٢ - السيوطى : **الدر المثور في التفسير بالتأثير** ، بيروت، دار الكتب اللبنانيّة.
- ٢٣ - السيوطى : **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، بيروت، دار الجيل.
- ٢٤ - الشافعى : (محمد بن إدريس) : **الرسالة**، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، ١٩٤٠ م.

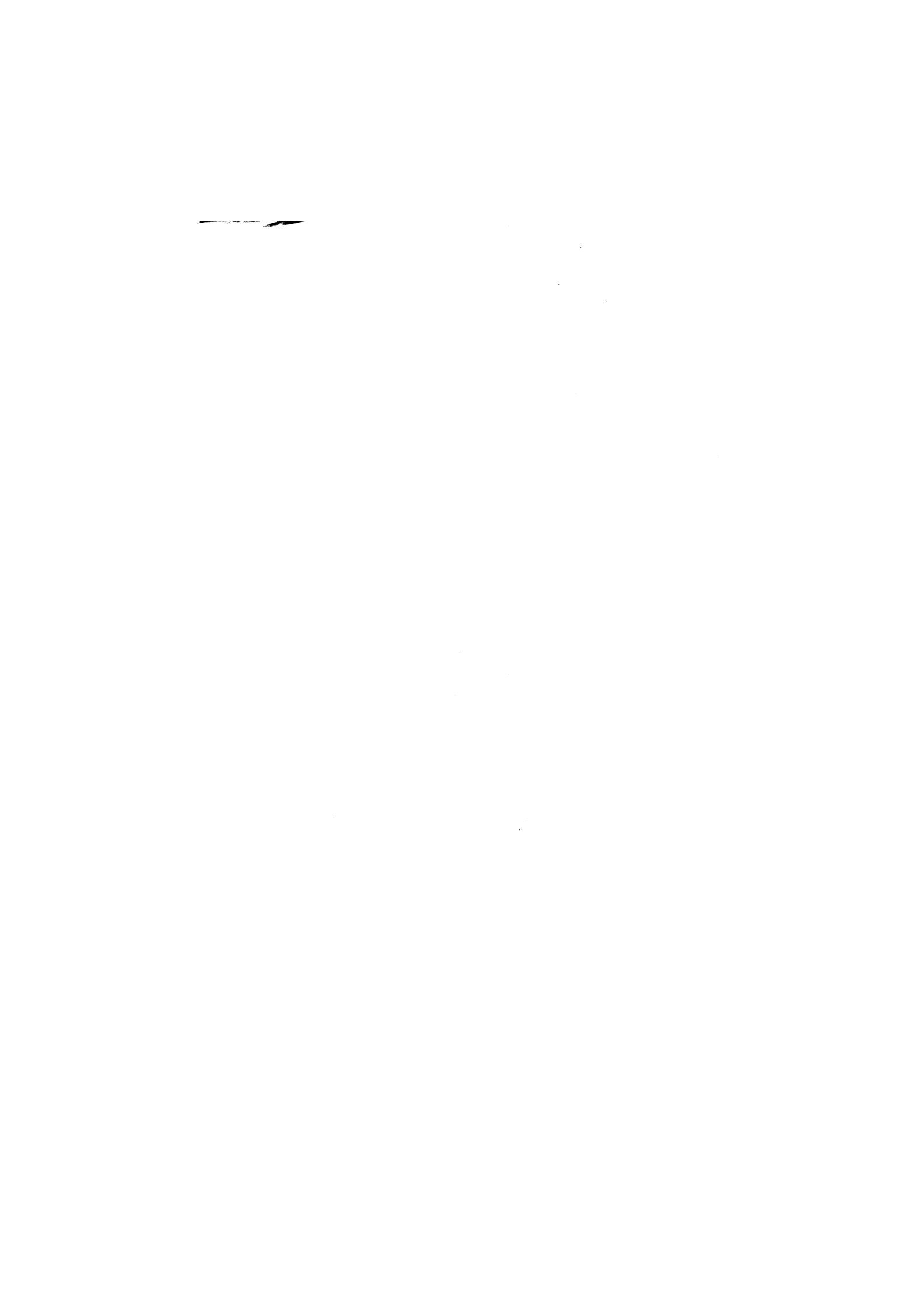
- ٢٥ - عائشة عبد الرحمن : *لقتنا والحياة*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١ م.
- ٢٦ - عبد السميع محمد أحمد : *المعاجم اللغوية*، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٩ م.
- ٢٧ - عبد العزيز مطر : *حنن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة*، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م.
- ٢٨ - على عبد الواحد وافي : *فقه اللغة*، ط ٨، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٤٥ م.
- ٢٩ - ابن فارس (أبو الحسن) : *معجم مقاييس اللغة*، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٩ م.
- ٣٠ - ابن فارس : *الصحابي في فقه اللغة*، القاهرة، مطبعة الحلبي.
- ٣١ - الفارابي (أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم) : *ديوان الأدب*، القاهرة، مجمع اللغة العربية.
- ٣٢ - النميروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) : *القاموس المحيط*، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢ م.
- ٣٣ - الفيومى (أحمد بن محمد بن على المعترى) : *المصباح المنير*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧ م.
- ٣٤ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : *تأويل مشكل القرآن*، القاهرة، دار التراث، ١٩٧٣ م.
- ٣٥ - القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) : *المجامع لاحكام القرآن*، القاهرة، الهيئة المصرية للمطبوعات، ١٩٨٧ م.
- ٣٦ - القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن على) : *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، القاهرة، المؤسسة المصرية للتتأليف والنشر.
- ٣٧ - ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشي) : *تفسير القرآن العظيم*، حلب، مكتبة التراث الإسلامي.

- ٣٨ - الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) : *روح المعانى* ،  
بيروت ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث .
- ٣٩ - محمد حسن جبل : *خصائص اللغة العربية (تفصيل وتحقيق)* ، دار  
الفكر العربي ، ١٩٨٧ م .
- ٤٠ - محمد حسن جبل : *علم اللغة (تمهيد عام)* ، دار السعادة ، ١٩٨٢ م .
- ٤١ - محمد على رزق الخناجي : *علم الفصاحة العربية* ، القاهرة ، دار  
العارف ، ١٩٧٩ م .
- ٤٢ - محمد كامل الفقى : *فضل القرآن على اللغة العربية* ، الكويت ، مجلة  
الوعى الإسلامي ، وزارة الأوقاف ، جمادى الآخرة ١٣٧٨ هـ ،  
سيتمبر ١٩٦٧ م .
- ٤٣ - مصطفى عبد الحفيظ سالم : *النسق المعجمى فى العربية* ، المنصورة ،  
كلية اللغة العربية ، ب. ت .
- ٤٤ - ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : *لسان  
العرب* ، بيروت ، دار صاد .
- ٤٥ - الأنصاري (جمال الدين رحلة الطالبين أبو محمد عبد الله بن يوسف  
ابن هشام) : *معنى الليب* ، القاهرة ، دار الكتاب المصري .
- ٤٦ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أیوب) : *السيرة النبوية* ،  
دمشق - بيروت ، مؤسسة علوم القرآن .
- ٤٧ - الهندي (علي بن حسام الدين) : *كترة العمال في سنن الأقوال  
والاعمال* ، حلب ، مكتب التراث الإسلامي .

## الفهرست

الموضوع	الصفحة
* المقدمة .....	٥ .....
<b>المبحث الأول</b>	
<b>مدخل في فضل اللغة العربية وبيانها و حاجتنا إليها</b>	
أولاً : اللغة العربية بين التاريخ والمعاصرة العالمية .....	١٣ .....
ثانياً : بين القرآن الكريم واللغة العربية .....	١٨ .....
ثالثاً : خصائص اللغة العربية .....	٢٢ .....
رابعاً : لغتنا العربية اليوم .....	٣١ .....
<b>المبحث الثاني</b>	
<b>اللغة العربية في القرآن الكريم</b>	
أولاً : وصف القرآن الكريم بكونه (عربياً) .....	٣٨ .....
ثانياً : وصف القرآن الكريم باللسان العربي .....	٤٤ .....
ثالثاً : أفضلية كون القرآن عربياً وليس أعمجماً .....	٤٨ .....
رابعاً : وصف القرآن الكريم بالحكم العربي .....	٥٠ .....
- وقفة تحليلية مع الإحدى عشرة آية المتصلة بتوصيف لغة القرآن .....	٥٠ .....
<b>المبحث الثالث</b>	
<b>اللغة العربية في الحديث النبوي الشريف</b>	
أولاً : أول من تكلم العربية .....	٦٣ .....
ثانياً : العربية لغة أهل الجنة .....	٦٥ .....
ثالثاً : إيحاء اللغة إلى الرسول ﷺ وتأكيد فضاحتها .....	٦٦ .....
رابعاً : الرسول الكريم ﷺ ودعوه للعربية .....	٦٨ .....

الصفحة	الموضوع
	<b>المبحث الرابع</b>
	<b>فضل اللغة العربية لدى الأئمة والعلماء</b>
٧٥	أولاً : عمر بن الخطاب وفضل تعلم اللغة العربية .....
٧٦	ثانياً : الإمام الشافعى وأوجه تفضيل اللغة العربية .....
٧٨	ثالثاً : الجاحظ ، ومنظف فصلها ، وسر تفوتها .....
٧٩	رابعاً : ابن جنى وحديثه عن اللغة العربية وأهلها .....
٨١	خامساً : العمالى ورأى عظيم فى خيرية اللغة العربية .....
٨٣	سادساً : القلقشندي وتفضيل اللغة العربية وسرد لبعض خصائصها .....
٨٥	سابعاً : أصحاب المعاجم العربية وفضل اللغة العربية .....
٩٠	ثامناً : مقتبسات مما قاله بعض الأئمة .....
	<b>المبحث الخامس</b>
	<b>مواقف لغوية من التراث فى العرض على اللغة والالتزام بها والحفاظ عليها</b>
٩٥	أولاً : حرص علماء العرب على اللغة .....
٩٨	ثانياً : التحرر اللغوى عند علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم .....
١٠١	ثالثاً : عنتهم بالتحو، والتحدث بالفصحي، وعدم المحن .....
١٠٩	• <b>الخاتمة</b> .....
١١٣	• <b>بعض المراجع المستعان بها</b> .....
١١٧	• <b>الفهرست</b> .....



رقم الإيداع / ١٣٧٦٥ / ١٩٩٩  
I. S. B. N  
977 - 294 - 163 - 5

**مطابع آمون**

٤ الشهورز من ش إسماعيل أباظة  
لاظوغلى - القاهرة  
٢٥٤٤٢٥٦ - ٢٥٤٤٥١٧ : تليفون